سامي خرطبيل




(مرشد عمل)






سامي خرطبيل

# الماركسية اللينينية
# مرشد عمل

دار ابن خلدون

دار ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ــ كورنيش المزرعة ــ بناية ريفييرا سنتر
هاتف : ٣١٢٢٣٥
ص.ب : ١١٩٣٠٨

الطبعة الاولى
١٩٧٧

الماركسية — اللينينية

مرشد عمل

# مقدمـــة

ينطلق هذا الكتاب ، من اعتبار العلم قراءة للوجود ، قـــراءة خالية من القيمة والغاية ، لكون الوجود حياديا ، لا يحوي قيمـــة او غاية او اتجاها . بل هو يسير بحسب قوانينه بشكل متعـــادل القيمة . وانما الفلسفة هي بحث في القيمة والغايات ، وهي اضافة هذه القيم والغايات ( الاهداف ) للقراءة العلمية ، لجعل العـــلم وبالتالي الوجود ذا اتجاه . وبذلك ليست الفلسفة بحثا في الوجود المطلق ولا بحثا في مبادىء الوجود ، ولا هي تصنيف للعلوم ، بل هي بحث في القيمة والهدف .

والماركسية انطلقت من هيجل ، وبقلبه اسست فلسفتها المادية الجدلية وذلك في شباب ماركس وتحت تأثـــير فيورباخ وضده . لكن ماركس عاد الى الوجود ليدرس الاقتصاد دراسة علمية ، فكان راس المال . والسؤال المطروح ، هل يتناسق ما جاء في الدراسة العلمية في راس المال مع ما جاء في الفلسفة التي تكونت في الشباب؟ ان الجواب ، يتناسق مع جزء من هذه الفلسفة والتي اكد فيها على العمل . ولذا كان لا بد من ايجاد فلسفة ماركسية تتناسب مع العلم الماركسي في راس المال ، وهو ما لم يصنعه ماركس بسبب وفاته. فما الذي حدث ؟ ان الماركسية اليوم هي كل النتاج الذي اخرجـــه ماركس وانجلز ، وقد جعل محوره المادية الجدلية والمادية التاريخية الموضوعة منذ البداية . فلا تناقض ، بـــل لوحة متكاملة . بيد ان السؤال لا يزال مستمرا : الا يوجد تعارض بين النتاج العلمي في راس المال مع النتاج الفلسفي الذي سبقه ؟ الا يجب أن نخضع الفلسفة

للانتاج العلمي ، لا ان نفعل العكس ، كما هو شائع اليوم ؟ هل نخضع ماركس الناضج الى ماركس الشباب ام نفعل العكس ؟ الا يجب ان نبحث عن محور اخر نستقيه من راس المال لا من فلسفة الشباب ؟

ان عرضنا للماركسية يستعيد الوضع الصحيح ، لذا لن نبدأ بالتعرض للفلسفة الماركسية كما جرت العادة ، بل سوف ننطلق من منطلق آخر يتناسب مع فهمنا للعلاقة بين الفلسفة والعلم .

في البحث الاول من القسم الاول اتعرض لانجازات ماركس العلمية في راس المال بالدرجة الاولى ، وسوف نكتشف أطروحة العمل التي اسس فوقها العلم الماركسي .

وفي البحث الثاني نستعيد التراث الفلسفي الماركسي لنناقشه بحسب ما جاء في راس المال . بذلك نكتشف تناقضات هذه الفلسفة كما نكتشف جوانبها الايجابية المتناسقة مع راس المال . وبالتالي نصل الى الفصل بين ما هو علم وما هو فلسفة .

وبالطبع ، لقد توجهت بالنقد الى « ماركسية » اخرى سميتها بالدوغمائية ، وهي تناقض ما اعرضه . بيد أن هناك ماركسية تسير بالاتجاه الذي حددته ، ويمكن ادراج كتابات لوكاتش وغرامشي ككتابات رائدة في هذا المجال . ولقد ولدت هذه الكتابات موجة من النقد ، تركز على انها تستعيد اطروحات « مخطوطات ١٨٤٤ » الانسانية . بيد اننا نرى على المنوال نفسه ان هذا النقد انما يعمم أطروحات الشباب في العقد السادس ( الايديولوجيا الالمانية ــ المقدمة والاسهام عام ٥٧ و ٥٩ الخ ) ، بيد ان هذا لا يحل المشكلة ، لان القضية كما سابين هي تتبعتطور ماركس ، وهل يجب ان نفهم راس المال بحاله ووضعه كآخر نتاج في تطوره ام يجب ان نرغم راس المال على الاندراج تحت المفاهيم

الاولى ، وهو ما يفعله أصحاب الاتجاه الاخر ، وحيث يغدو الامر بحثا عن الايديولوجية السابقة في راس المال (١)

لن نحاول في هذه المقدمة انهاء الاشكال،لان هذا هو بحثنا برمته. ومن أجله وضع . لكننا بتنويهنا هذا ، نبهنا الى المحاولات الرائدة لاتجاهنا ، ونبهنا للراي المعارض ايضا (٢) ، حتى تكتمل الصورة .

---

(١) كمثال ، نص على ذلك التوسير وصرح به : راجع قراءة راس المال . كذلك محاولات زملائه جاك دانسير ، وبيير ماشيري ، حيث نرى القسر والتجاوز الواضح.

(٢) نضيف الى ذلك هنري لوفيفر في كتابه ماركس وعلم الاجتماع . واوغست كورنو في كتابه الجيد ماركس وانجلز . والتوسير وجماعة البنيوية .

# القسم الاول

# نحو فهم الماركسية

(( ينبغي عليهم الا يستعيدوا الماضي بل ان يبنوا المستقبل . فليستعملوا بهدوء وعزم جميع الوسائل التي تعطيهم اياها الحرية الجمهورية ، لكي يوطدوا بصورة ارسخ تنظيم طبقتهم الخاصة ، وهذا ما يمنحهم قوى جديدة ، قوى هرقل للنضال من اجل بعث فرنسا ومن اجل قضيتنا المشتركة – تحرير العمل . ))

ماركس : الحرب الاهلية في فرنسا

# الفصـل الاول

# علم العمل

بدا ماركس من هيجل وفيورباخ ، ثم طور فلسفته باتجاه خاص عرف بالمادية الجدلية والمادية التاريخية . ولم يتوقف عند هذا الحد، بل انتقل الى الاقتصاد كعلم ليبحـــث فيه بحثا علميا ، مستخرجا نظرياته التي عرضها في « رأس المال » .

اذن بدا ماركس من الفلسفة وانتهى بالعلم . بيد ان القضيــة ليست بهذه البساطة على الرغم من منطلقات ارسطو حول الفلسفة كعلم لمبادىء الوجود وكعلم كلي . اذ ان هدف ماركس هو تكـــرار اللحظية الارسطية ، ومن هنا كانت عودته للعلم ، كمراجعةمبدأية، وبذلك يصبح المبدا نتيجة استقراء ، مثلما حدث مع ارسطو ، وعلى عكس ما يتراءى للوهلة الاولى ، وعلى عكس ما تبسطه مختصرات العلم الاول ، فأساس القياس استقراء علمي .

من هنا نحكم ان ابحاث ماركس العلمية ، كانت لمراجعة فروضه الفلسفية ، وليس لاثبات صحتها ، وكأن ما حدث هـــو تطبيق لمبدأ كلي على احد فروعه الجزئية . ان الفرق الواضح يظهر للتو ، وهو ان ما يصبح فرضا قد يصدق وقد يكذب ، وقد يتعدل الى هذا الحد او ذاك ، وبالنتيجة يحتاج الامـــر الى مراجعـــة اخرى للمنطلقات الفلسفية بحسب نتائج العلم . بذلك يستعيد الموضوع اصالتـــه ، وتكون الفلسفة تالية على العلم لا متقدمة عليه .

والسؤال البديهي ، هل توصل ماركس العالم الى نتائج تعارض فروضه الفلسفية ؟ في راس المال كشف ماركس ان أساس الاقتصاد هو العمل ، وكشف انه محرك اساسي للتاريخ ، وفيما قبل راس المال يظهر العمل بدور جزئي ، اذ أن شكل الانتاج هو المحرك الاساسي ، وذلك بتعميم اراء فيورباخ المادية على الاقتصاد لا اكثر، بعد ادخال الجدل عليها . في راس المال نجد ان تبعية الانسان الى الاقتصاد هي عملية سحق واستلاب لانسانية الانسان ، على حين أننا نجد فيما سبق رأس المال ان هذه التبعية مبدأ اول في الوجود . ونكتفي بهذين المثلين وهما يشيران بوضوح الى ان الفروض نبذت في العلم ووضع بديل عنها . وهذا يحيلنا بطبيعة الحال الى سؤال آخر ، عن الفلسفة المنتظرة ، والتي كان ماركس قد وضع مخططا لها من دون أن ينفذه .

والماركسية بتأثير من انجلز ، خففت من وطأة القضية ، بجعلها راس المال مجرد تطبيق للمبدا الكلي على احد فروعه الجزئية ، فالمبدأ صحيح ، وعلم الاقتصاد يؤكد هذا ، وبذلك ما علينا لتنظير الفلسفة الماركسية سوى ان نجمع كل ما قيل وننسقه بحسب المحور الاساسي .

وهذا اجل القضية ولم ينهها ، اذ ليس الامر مجرد دمج ، بل هو طرح اساسي يستعيد الفلسفة من جذورها . اذ ما أسهل أن نجد مكانا ما للعمل ضمن الانظومة بعمل تلفيقي ، وغايتنا الرئيسية تكرار هيجل ، بيد أن التلفيق سيؤجل ولن يحسم ، وسرعان ما يتفجر التناقض .

لم يكن هيجل ليسأل عن العمل أو بالاحرى ليسأل عن الحرية . فالقضية في نظامه تسلسل منطقي محكم ، لذا لم يجد بأسا بأن ينعت الحرية بكونها خدعة عقلية لا غير . الا أن ماركس — وليست الوجودية — قد فجر السؤال عن مكان الحرية في النظام ، ما دام العمل اساسيا . فجر السؤال ولم يعط الجواب ، وسوف يردم السؤال ليتفجر من جديد .

و «الدوغمائية» اليوم تكرر عملية التلفيق في ردها على الوجودية، بيد أن هذا التلفيق ابتعاد عن علم ماركس بحد ذاته . والقضية

ـيـت الصاق الحرية بالحتمية بل تبرير هذه الحرية تجاه الحتمية. وهو ما تعجز «الدوغمائية» عنه ما دامت تجري وراء فيورباخ وانجلز وأحاديثهما . كل ما هناك ، نقص في الجرأة الهيجلية ، وهي تفصح عن نفسها من دون وجل ، وبانسجام مطلق مع المذهب ، ما الحرية لا خدعة عقلية وحيلة مضحكة .

ان ازمـة « الدوغمائيـة » الحاليـة ترتـد الـى علاقة بين الفلسفة والعلم . بأيهما نبدأ ، ومن يصحح الثاني ، وعندما نقول العلم نقول موضوعه ، نقول الواقع ، وعندما نقول الواقع ، نجد امامنا علاقات وموادا وبشرا . نجد ماركس في راس المال ، وهو يكشف العمل ومن ورائه الافكار ، كأحد الابوين مـع الارض. فكيف نصنع فلسفة يقف العمل فيها بجانب الارض، كيف نضع الحرية في الحتمية ؟ والسؤال اولا واخيرا ماركسي ، كشف عنه ماركس ، ولم يجب عليه ، وشاء خلفاؤه ايسر السبل للخروج من القضية بالالتصاق بهيجل وبفيورباخ، وبالادعاء ان السؤال سؤال بورجوازي تطرحه فلسفتها الوجودية ، ولن يعجزهم الامر ، لانهم سيجدون في كتابات ماركس الاولى قبل راس المال ادلة وبراهين عديدة . بيد ان السؤال سؤال ماركسي طموح يستعيد الفلسفة من دنها . بعد ان وجد ماركس القاعدة الصلبة التي سيبني عليها ما يريد ، مفجرا الدوغمائية الاولى التي تحدث عنها عندما كان فيلسوفا، مستبدلا اياها بالتحليل العلمي للواقع. بانتظار فلسفة أخرى منسجمة مع نتائج العلم .

## العمل :

ما العمل ؟ **يقول ماركس** :

« ان العمل للوهلة الاولى ، فعل يتم بين الانسان والطبيعـة ، ويلعب الانسان نفسه فيه دور ثورة طبيعية حيال الطبيعة . وهو يشرع في تحريك القوى التي زود بها جسده ذراعاه وساقاه ويـداه من أجل ان يتمثل المواد معطيا اياها شكلا نافعا لحياته . وفي الوقت نفسه الذي يفعل فيه بهذه الحركة في الطبيعة الخارجية ويعدلها ، يحور في طبيعته الخاصة وينمي القدرات الكامنة فيها .

« ولن نتوقف عند هذه الحالة الاولية للعمل حيث لم يتجرد بعد من اسلوبه الغريزي الخالص ، ونقطة انطلاقنا هي العمل على شكل ينتمي للانسان حصرا . ان عنكبا ما يقوم بعمليات تشبه عمليات الحائك والنحلة تزرى ببنية خلاياها الشمعية اكثر من مهندس ، ولكن ما يميز اسوأ مهندس عن أخبر نحلة منذ البداية هو انه يشيد الخلية في راسه قبل أن يشيدها في القفير ، فالنتيجة التي يؤدي اليها العمل موجودة مثاليا ، مسبقا ، في خيال العامل ، لا لانه يحدث تبدلا في المواد الطبيعية فقط ، **بل لأنه يحقق بالفعل ذاته هدفا خاصا يعيه ويحدد اسلوبتصرفه كقانون ، ويجب أن يخضع ارادته له .** وهذا الاخضاع ليس موقوتا ، فالعمل يقتضي خلال كل مدته علاوة على جهد الاعضاء التي تعمل انتباها متصلا لا يمكن أن ينجم هو نفسه الا عن توتر مستمر للارادة . ويزيد استلزام العمل لذلك كلما قل احساسه بأنه التفاعل الحر لقواه الجسدية والعقلية وبكلمة واحدة كلما كان اقل جاذبية . (١)

العمل اذا هو الاساس ، وهو لا يكون من دوناهداف ومن دون افكار ، فهذه تسبقه وهذه ميزة الانسان .

ويتابع ماركس موضحا العناصر البسيطة التي تنحل اليهاسلسلة اماعيل العمل :

**« ١ ـ الفعالية الشخصية للانسان أو العمل المحض .**

**٢ ـ الموضوع الذي يفعل فيه العمل .**

**٣ ـ الوسيلة التي يفعل بها اي الادوات (٢) فالانسان حيوان صانع للادوات » .**

**يقول ماركس :**

« ففعالية الانسان تجري اذن في سلسلة أفاعيل العمل وبواسطة

---

(١) راس المال الكتاب الاول ج١ في ص ٢٨١ ترجمة انطون حمصي ط٢ دمشق .

(٢) راس المال ك١ ج١ ص ٢٨٢ و ٢٨٤

ذواته تحويرا متصودا في موضوعه ، وتنطفىء سلسلة الافاعيل في الانتاج ، اي في قيمة استعمالها في مادة طبيعية تتمثلها الحاجات الانسانية نتيجة لتغير في الصورة . ان العمل في امتزاجه مع موضوعه ، قد تجسد ماديا ، والمادة صنعت ، فما كان في نطاق الحركة لدى العامل يبدو الان في النتاج خاصة من خصائصه في حالة سكون ، فالعامل نسج ونتاجه **نسيج** .».

« واذا اعتبرنا مجموع هذه الحركة من وجهة نظر نتيجتها اي النتاج فعندئذ تبدو وسيلة العمل وموضوعه على انهما وسيلتا انتاج، ويبدو العمل ذاته عملا منتجا » (١)

ويتابع في الجزء الثاني ما ذكره :

**« ان الانسان يخلق نتاجا بتوفيقه موضوعا خارجيا مع حاجاته، ويتحد العمل اليدوي والعمل الفكري في هذه العملية ، بصلات لا تنفصم ، تماما كما ان الذراع والرأس في منظومة الطبيعة لا يسير احدهما دون الاخر » (٢) .**

ثم يتوسع بالمفهوم :

« الا ان تحديدي العمل الانتاجي والعامل الانتاجي يتوسعان بالضرورة منذ البرهة التي يتحول فيها النتاج الفردي الى نتاج اجتماعي ، الى نتاج عامل جماعي تسهم مختلف اجهزته في معالجة المادة بدرجات شديدة التنوع من قريب أو من بعيد او لا تسهم في ذلك البتة . فلم يعد من الضروري ليصبح المرء انتاجيا ان يعمل يديه هو نفسه في العمل ، بل يكفي ان يكون عضوا من اعضاء العامل الجماعي أو ان يقوم بوظيفة ما من وظائفه . ويبقى التحديد الاولي للعمل الانتاجي ، المولود من طبيعة الانتاج المادي نفسها صحيحا دائما ، بالنسبة للعامل الجماعي المنظور اليه كشخص واحد ، ولكنه لم يعد ينطبق على كل من اجهزته ماخوذا على حدة » (٣) .

---

(١) رأس المال ك١ ج١ ص ٢٨٦

(٢) رأس المال ك١ ج٢ ص ٢٨٧

(٣) كذلك ك١ ج٢ ص ٢٨٨

ثم يكتشف النقلة الاساسية بعد هذا الشرح ، والـــذي لا تبدو اهميته الا في تتبع منحاه ومساره :

« الا ان ذلك ليس هو ما يميز العمل الانتاجي في النظام الراسمالي تمييزا خاصا ، فالهدف الذي يحدد الانتاج هنا هو فضل القيمة ، فلا يعتبر انتاجيا اذن سوى العامل الذي يرد على الراسمالي فضل القيمة والذي يخصب عمله راس المال » (١) .

ليس المهم ان نضع كلمة ونقول هي الاساس ، بل المهم ان نبين ما تمثله هذه الكلمة ، فنراها وهي متجسدة في الواقع ، ونراها وهي تتحرك وتعمل، كيفتكون الاساس فعلا لا قولا، والا فالامر لا يعدو التقرير الدوغمائي ، وعندها فالامر مجرد كلمة لا غير .

والعمل عند ماركس ليس كلمة تقريرية ، هو الاساس فعـــلا ، وهو يتحرك في الواقع ، وهو ينتج ، وما يصنعه ماركس العالـــم ليس سوى كشف وبيان حركات ومنحى الفعل .

والامر لا يحتاج لشرح ، فنصوص ماركس واضحة ، على العكس مما يشاع ، فلندعه يتابع :

« ان كل فعالية انتاجية في نهاية المطاف انفاق لقوة انسانيـــة بصرف النظر عن صفتها النافعة » (٢) .

« والعمل هو الشرط الضروري لحياة الانسان من حيث ينتـــج قيم استعمال ، من حيث انه نافع ، وهو ضرورة أبدية ، وهو وسيط التداول المادي بين الطبيعة والانسان » (٣) .

كيف ينتج القيمة ؟ للسلعة قيمتان :

« السلع بوصفها قيم استعمال هي قبل كل شيء ، مختلفة في الكيف ، اما من حيث هي قيم تبادل ، فانها لا يمكن ان تكون الا مختلفة في الكم » .

---

(١) كذلك ك١ ج٢ ص ٢٨٨

(٢) راس المال ك١ ج١ ص ٨٣

(٣) المرجع السابق ص ٨١

« وعندما توضع قيم استعمال السلع جانبا ، فانه لا يبقى لها سوى صفة واحدة هي كونها نتاجا للعمل » (١) .

كيف تقاس ؟

« اننا نقيسها بكم الجوهر ( المبدع للقيمة ) المحتوى فيها ، بكم العمل » (٢) .

اذن الخلاصة :

« نحن نعرف الان جوهر القيمة، **انه العمل** ونحن نعرف مقياس كميتها ، انه مدة العمل » (٣) .

وهذا بالنسبة لقيم التبادل ، فماذا عن قيم الاستعمال ؟

« ان قيم الاستعمال ، القماش ، الثوب .. الخ اي اجسام السلع هي تركيبات لعنصرين هما **المادة والعمل** ، واذا طرحنا منها المجموع الكلي لمختلف الاعمال النافعة التي تتضمنها ، فانه يبقى هناك دائما راسب مادي، شيء ما توفره الطبيعة ولا يدين بشيء للانسان» (٤) .

اذن الخلاصة :

« فليس العمل اذن المصدر الوحيد لقيم الاستعمال التي ينتجها وللثروة المادية . **انه أبوها والارض أمها** كما قال وليم بيتي » (٥) .

بحسب هذا يجب أن نفهم كل ما صدر عن ماركس .. فهو الاساس الاول لعلم العمل وهو الاساس الاول لفلسفة العمل الهادف .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٥

(٢) المرجع السابق ص ٧٦

(٣) المرجع السابق ص ٧٨

(٤) رأس المال ك١ ج١ ص ٨٢

(٥) كذلك ص ٨٢ ( كل تاكيد من وضعي ) ولنلاحظ ان ماركس قد ذكر هذا الاستشهاد في نقد الاقتصاد السياسي بشكل سلبي .

## العمل المستلب :

مر معنا ان العمل يصنع رأس المال بوساطة **فضل القيمة**، والعمل هو الذي ينتج هذا الفضل . وماركس استخدم الاصطلاح ، بيد ان المقصود يلتبس عندما تؤقنم نظرية ماركس ، وعندما يرفع العمل ويبقى الحديث عن صنمية البضاعة وصنمية القيمة وصنمية رأس المال .

لذا اخترت الاسم المناسب والمعبر، ليكشف عما يريده ماركس ، خاصةوان ماركس نفسه استخدم تعبير «العمل المستلب» كمرادف لفضل القيمة ، (١) فكيف يستلب العمل ؟

العمل ينزل الى السوق كالسلعة ليبيعه صاحبه . والطبيعة لا تنتج عمالا يبيعون عملهم وراسماليين يشترون هذا العمل ، وانما التطور التاريخي والثورات الاقتصادية ادت الى هذا الوضع (٢) .

والعامل عندما يريد بيع عمله يجب ان يكون حرا من ناحيتين :

« اولا : ان يكون العامل شخصا حرا يتصرف طوعا بقوة العمل لديه تصرفه بسلعة يملكها . ويجب ثانيا ان لا تكون لديه سلعة اخرى يبيعها فيجب ان يكون ان صح القول حرا من كل شيء ، محروما تمام الحرمان من كل الاشياء الضرورية لتحقيق طاقته العاملة » (٣) .

ما الذي يحدد ثمن هذه السلعة التي نزلت الى السوق ؟ وبمعنى اخر كيف يتحدد اجر العامل ؟

« ان قوة العمل بوصفها قيمة تمثل كمية العمل الاجتماعي المحقق فيها، الا انها غير موجودة فعلا الا كطاقة او قدرة للفرد الحي، واذا ما نظرنا الى الفرد فانه ينتج قوته الحيوية بالتكاثر او بمحافظته على نفسه ، وهو يحتاج من اجل صيانة نفسه او المحافظة عليها الى مقدار من وسائل العيش . فزمن العمل الضروري لانتاج قوة العمل يرتد اذن الى زمن العمل الضروري لانتاج وسائل العيش هذه .

---

(١) المرجع السابق راجع ك١ ج١ ص ٤٦٤

(٢) المرجع السابق ك١ ج١ ص ٢٦٦

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٦

او ان قوة العمل تملك بالضبط قيمة وسائل العيش الضرورية للذي يضعها موضع العمل .

« وتتحقق قوة العمل بتجليها الخارجي فهي تتولد وتبرز للعيان في العمل . والعمل يستلزم من جانبه استهلاكا معينا لعضلات الانسان واعصابه ودماغه . وهو استهلاك يجب ان يعوض . وكلما كبر الاستهلاك كبرت نفقات الاصلاح ، فاذا اشتغل مالك قوة العمل اليوم ، فيجب ان يكون قادرا على المعاودة غدا ضمن نفس شروط القوة والصحة . فيجب اذن ان يكفي مجموع وسائل العيش لصيانته في حالة حياته السوية » (١) .

وكذلك تشمل وسائل العيش الضرورية ، وسائل عيش الاولاد الذين سيحلون محل آبائهم في بيع عملهم ، وتربيتهم ، مع تغطية كاملة للاستهلاك المستمر يوميا او اسبوعيا او سنويا .

نفترض الان ان كل هذه الوسائل تكلف يوميا ٥ ليرات ، وباع العامل عمله بهذا السعر خلال زمن معين يكون الوضع صحيحا ، لكن ما يحدث هو امر آخر غير هذا .

ان العامل يسلف الراسمالي عمله ، والراسمالي يستغل هذا العمل منميا راس ماله من دون مقابل .

ان ما يضمن وسائل العيش اليومي يعادل ٥ ليرات ، والعمل المفترض لقاء هذا المبلغ هو ٥ ساعات مثلا . بيد ان الراسمالي يشتري عمل يوم كامل ، ولا يشتري العمل الذي يضمن العيش للعامل . انه يقدم الاجر اللازم لضمان العيش مقابل العمل خلال ساعات اليوم الممكنة ، وهي مثلا ١٢ ساعة . فالراسمالي يدفع اجر ٥ ساعات ويأخذ عمل ١٢ ساعة بصورة اجبارية . وهذا شرط شراء العمل . والفرق الزمني هو الذي يشكل فائض العمل الذي من اجله يشتري الراسمالي العمل اصلا .

ان العمل الفائض يقاس بكمه اي بزمنه ، وهذا يتحول الى قيمة ، وما ياخذه الراسمالي هو فائض القيمة ، وهذا الفائض هو الذي يخلق راس المال . (٢)

---

(١) المرجع السابق ك١ ج١ ٢٦٨ و ٢٦٩

(٢) المرجع السابق ك١ ج١ ص ٢٦٩ — ٢٧٧ .

العمل يتحول الى قيمة ، الى مال ، والمال يتحول الى سلع . والسلع تتحول الى راس مال . والفرق بين المال وراس المال كامن في العمل ، في عدد ساعات العمل التي يصرفها العامل زيادة عما يضمن له وسائل العيش (١) .

المال يتحول الى راسمال عن طريق تحوله الى سلع ، وتحول السلع الى مال وفضل قيمة مرة اخرى وبصورة متتابعة . ليس من طبيعة المال ان ينتج فضل القيمة ، والطريق الوحيد للتحول ناتج عن شراء العمل (٢) .

« فقوة العمل تباع هناك في السوق من اجل ان تستغل في الانتاج حيث يصبح منبع فضل قيمة وكل شيء على هذا النحو على افضل ما يرام في احسن العوالم الممكنة . »

« والراسمالي اذ يحول المال الى سلع تستخدم كعناصر مادية في انتاج جديد بضمه اليها بعد ذلك قوة العمل الحي ، فانه يحول القيمة — قيمة العمل الماضي الميت ، الذي اصبح شيئا — الى راسمال ، الى قيمة حبلى بالقيمة ، الى وحش ذي حيوية ينصرف الى العمل كما لو كان الشيطان يسكن جسده (٣) .

بمعنى آخر يقسم يوم العمل الى قسمين ، عمل ضروري وعمل اضافي، وفضل القيمة ينتج عن العمل الاضافي للعامل(٤) . واما من الذي يقرر هذا العمل الاضافي فهو : القوة . ان راس المال ينزع الى التضخم ، كمصاص للدماء ، وذلك بامتصاص أكبر قدر من العمل الاضافي . الشعار الوحيد المطروح هو « العمل حتى الموت » (٥)
حتى هنا كانت طريقة الاستغلال بالاستفادة من تمديد يوم العمل

---

(١) المرجع السابق الفصل السادس .

(٢) المرجع السابق ك١ ج١ الفصل الرابع والخامس .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٤ . راجع الفصل السابع

(٤) المرجع السابق : راجع الفصل التاسع .

(٥) المرجع السابق : راجع الفصل العاشر .

وهو ما يسميه ماركس فضل القيمة المطلق . لكن هناك طريقةاخرى للاستغلال ويسميها فضل القيمة النسبي ، وتنتج « عن اختصار زمن العمل الضروري ، وعن التغيير المقابل في المقدار النسبي للجزئين اللذين يتالف منهما اليوم » (١) .

ما العلاقة بينهما ؟

« ان تمديد يوم العمل الى ما بعد الزمن الضروري للعامل ، لتقديم معادل صيانته ومنح هذا العمل الزائد لرأس المال: ذلك هو انتاج فضل القيمة المطلق وهو يشكل القاعدة العامة للنظام الراسمالي ونقطة انطلاق انتاج فضل القيمة النسبي . فاليومهنا مقسوم بالفعل الى قسمين : العمل الضروري والعمل الزائد ( الاضافي ) ومن اجل اطالة العمل الزائد يختصر العمل الضروري بطرائق تنتج معادل الاجر بمقدار ادنى من الزمن . ولا يؤثر انتاج فضل القيمة المطلق سوى على مدة العمل ، في حين يحول انتاجفضل القيمة النسبي طرائقه التقنية وتركيباته الاجتماعية تحولا كاملا فهو ينمو اذن مع نمط الانتاج الراسمالي بالمعنى الحقيقي للكلمة .

« ويتوطد هذا النمط ويعمم . ويستشعر الفرق بين فضل القيمة النسبي وفضل القيمة المطلق منذ ان يدور الامر حول رفع معدل القيمة . فاذا افترضنا أن ثمن قوة العمل يدفع بموجب قيمتها الصحيحة ، فاننا نصل بديهيا الى احد هذين الاحتمالين . فاما انه لا يمكن رفع معدل فضل القيمة الا بزيادة كثافة العمل أو انتاجيته على اعتبار أن حدود اليوم معطاة . واما بالمقابل أن لا يمكن رفع معدل القيمة الا بتمديد لاحق لليوم اذا بقيت كثافة العمل وانتاجيته على حالهما » (٢) .

نتيجة لذلك يتكون رأس المال ، ثم يتراكم راس المال . يتراكم نتيجة رسملة فضل القيمة وذلك بتسليفها على شكل عمل مأجور في المصنع . (٣) .

---

(١) المرجع السابق : ك١ ج٢ ص ٩

(٢) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ٢٨٨

(٣) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ٢٦ و ٣٢ .

**الاغتراب :** ( الضياع ، الاستلاب ) : (١)

استخدم هيغل فكرة الاغتراب ، وهي تعني عنده استلاب الطبيعة للفكرة المطلقة خلال الجدل ، وينتهي الاغتراب عندما تعي الفكرة المطلقة نفسها بوعي الانسان لها وقد اكتملت الحلقة .

وقد عكس فيورباخ فلسفة هيغل ، ومن جملة ما عكس فكرة الاغتراب . وهي تعني عنده ، أن يسلخ الانسان ما هو خاص به ويحوله الى وجود خارجي متعال عليه ، هو الاله . فكل ماهية الله هي ماهية انسانية ، اغتربت بهذا الاستلاب ، بهذا الخلق للاله .

وقد لحق ماركس هيغل وفيورباخ ، واستخدم الاغتراب ، ولكن ليدل على معنى جديد يتصل بما نحن فيه وهو سرقة العمل الاضافي . ان التاريخ بحث في فعالية الانسان ، والاغتراب هو نزول الانسان المفكر ـ أعلى ما وصلت اليه الطبيعة ـ الى مرحلة سابقة ، الى مرحلة الحيوان ، والى مرحلة الاله ـ المادة ـ نتيجة لاستغلاله من قبل انسان اخر ، نتيجة لسرقة عمله الاضافي ، ونتيجة لارغامه على بيع عمله ، وعمله ضمن شروط لا اخلاقية ، تحت الحد الادنى من الشروط الفيزيولوجية للعمل وللحياة .

وهنا نلتقي « بالمادية » الماركسية السابقة ، ولكن بعد أن وضعت في اطار جديد ، يتغلب على تلك السذاجة الاحادية .

ان المعيار الوحيد الان هو العمل ، وهو القوة الاولوية والاولى التي بها يكون الانسان اتجاه المادة .

ان كون المادة قوة فعالة على الانسان ليست كذلك لان طبيعة الموضوع يفترض هذا ، بل هي كذلك نتيجة للاغتراب وللضياع . نتيجة لاستغلال الانسان ، وعندها يفقد ما هو خاص به ، وما هو كائن بحسبه ، اي كونه الانسان المفكر والمبدع ، كونه الانسان الحامل للافكار وللقيم ، والمبدل للوجود بعمله ، يفقد كل هذا

---

(١) راجع ملاحظة حول استخدام ماركس للضياع والاغتراب . مخطوطات سنة ١٨٤٤ ص ١٧٠ الهامش . نشر وزارة الثقافة دمشق .

ويتنازل عن انسانيته ، ليعمل كالالة تحت شروط غير انسانية ، وليعمل تحت الشروط التي تفرضها عليه هذه الالة ، وليعمل تحت الشروط التي يفرضها عليه راس المال في حركته المتطلبة للتضخم بصورة مستمرة . فيضيع حريته ، ويصبح تابعا امينا للاقتصاد وللالة وللمادة (١) ..

**ان راس المال بحث علمي في الاقتصاد** . لكن هناك ما هو هام ايضا ، ان راس المال ملحمة ادبية لا تضاهيها الا كتابات عباقرة الادب . هناك روايات عديدة تصور البؤس ، بيد أن ماركس ضمن كتابه العلمي ، في سياق علمي ، اروع رواية للبؤس الانساني ، كما ضمنه اقتباسات عديدة تصور اوجه هذا البؤس ، وكأن هذه الملحمة موسوعة للبؤس الانساني ، موسوعة للاغتراب ، ذلك ان هذا البؤس ، ليس أكثر من تبعية الانسان للاقتصاد ، ليس اكثر من ان الاقتصاد هو محرك التاريخ ، بكلمة : ما البؤس الا اغتراب الانسان . وبكلمة ثانية : ما المادية الا ضياع الانسان .

على أي ان فكرة الضياع مبثوثة في كتب ماركس الاخرى ، وخاصة مخطوطات ١٨٤٤ ، مع ذلك يمكننا ان نتتبع الامر لنرى كيف يفهم ماركس المادية ، وكيف يضيع الانسان ذاته .

## كتب ماركس :

« ان التقسيم الشغلي للعمل يفترض السلطة المطلقة للراسمالي على رجال تحولوا الى مجرد اعضاء من آلية تخصه . اما التقسيم الاجتماعي للعمل فهو يواجه بين منتجين مستقلين لا يعترفون فيما

---

**(١) على هذا النحو نفهم قول ماركس في مقدمة راس المال للطبعة الالمانية الاولى ( سنة ١٨٦٧ ) وهو (( .. ولكن الامر لا يدور ، هنا ، حول الاشخاص الا بقدر ما هم تجسيد لمقولات اقتصادية ودعامات لمصالح طبقات معينة ولعلاقات هذه الطبقات . ووجهة نظري التي تقول أن نمو التشكيل الاقتصادي للمجتمع شبيه بسير الطبيعة وتاريخها ، اقل من كل وجهة نظر اخرى قدرة على اعتبار الفرد مسؤولا عن العلاقات التي يبقى ، اجتماعيا ـ وليدها مهما فصل من أجل ان يتحرر منها : )) راس المال ك١ ج١ ص ٢٣ .**

يتعلق بالسلطة الا بسلطة المنافسة ، ولا يعترفون بقوةاخرى خلاف الضغط الذي تفرضه عليهم مصالحهم المتبادلة تماما كما تغـذي حرب الكل ضد الكل في المملكة الحيوانية ، شروط حياة كل الانواع بصورة متفاوتة . وهذا الضمير البورجوازي الذي يمجد التقسيم الشغلي للعمل ، اي الحكم على العامل مؤبدا بعملية تفصيلية واخضاعه السلبي للراسمالي ، هذا الضمير يصدر صرخات عالية ويغمى عليه عندما يجري الحديث عن المراقبة وعن التنظيم الاجتماعي لسلسلة أفاعيل الانتاج . انه يندد بكل محاولة من هذا النوع بوصفها هجوما ضد حقوق الملكية والحرية وعبقرية الراسمالي » (١) .

## ما نتائج تقسيم العمل ؟

« .. بل ان الفرد نفسه هو الذي يجزا ، ويستحيل الى انطلاق لعملية حصرية بحيث تتحقق اسطورة مينينيوس اغريبا اللامعقولة التي تصور انسانا بوصفه شطرا من جسمه الخاص » (٢) .

ان شرط العمل هو أن يبيع العامل بشكل حر سلعة هي عمله وقد باعها الى الراسمالي . فما الذي حدث بعدئذ ؟ :

« اما الان فهو يبيع الزوجة والاطفال. فهو يصبح بائع عبيد»(٣) .

ذلك ان الراسمالي في جشعه وجد ان تشغيل النساء والاطفال يوفر عليه بعض كسبه ، لانـه يشتري عمـل هؤلاء بثمن ابخس ، وتكون النتيجة تدهور صحي واخلاقي وتدهور عقلي . والاهم :

« وبضم كتلة راجحة من الاطفال والنساء الى ملاك العمل المتمازج تنجح الالة اخيرا في تحطيم المقاومة التي كان العامل الذكر ما يزال يجابه بها استبدادية راس المال في الشغل » (٤) .

---

(١) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ٦٧
(٢) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ٧٣
(٣) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ١١٩
(٤) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ١٣٠

العامل اصبح آلة ، لكن العكس ، صحيح ايضا الان ، فالالــة اصبحت انسانا :

« فوسيلة العمل ( الالة ) هي منذ ذلك الحين حركة صناعيــة دائمة تنتج بلا حدود اذا لم تصادف حاجزا طبيعيا في مساعديــها البشريين،في ضعف اجسادهم وقوة ارادتهم . فالشخص الالة اصبح ـ بوصفه رأس مال ـ انسانا في شخص الرأسمالي وان هناك هوى يحركه:فهو يريد ان يمدد المرونة الانسانية وان يسحق كل مقاومتها . ان السهولة الظاهرة لعمل الالة وعنصر النساء والاطفال الاكثر لينا وطواعية يساعدانه في هذا العمل الاستعبادي » (١) .

ان الالة تمدد يوم العمل وتحول اسلوب العمل والطابع الاجتماعي للعامل ، وتنتج عمالا من دون عمل ، ( ومضطرين ) للخضوع لاية شروط :

« ومن هنا تنجم تلك الظاهرة العجيبة في تاريخ الصناعة الحديثة، وهي ان الالة تقلب كل الحدود الاخلاقية والطبيعية ليوم العمل . ومن هنا تنشأ المفارقة الاقتصادية وهي ان اقوى وسيلة لاختصار زمن العمل تصبح بانقلاب غريب انجع وسيلة لتحويل حياة العامل واسرته كلها الى زمن متوفر لوضع رأس المال موضع استثمار» (٢) .

## لمـــاذا ؟

لان « العامل في الشغل والمهنة يستخدم اداته . اما في المصنع فهو يخدم الالة . هنالك تنطلق حركة الاداة منه ، اما هنا فيقتصر علــى اللحاق بها ، والعمال يؤلفون في الشغل عددا من اعضاء آلية حية مساويا لعددهم ، اما في المصنع فهم مندمجون في آلية معينة توجد بصورة مستقلة عنهم » .

---

(١) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ١٣١

(٢) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ١٣٧

« ان الاطراد الممل للكدح الذي لا نهاية له ، يسببه عمل ميكانيكي واحد دائما ، يشبه عذاب سيزيف . فثقل العمل كالصخرة ، يعود الى السقوط ، دائما ودون رحمة على العامل وينهكه » (١) .

وهكذا ، وقبل كامو ، ينتبه ماركس الى لا معقولية الحياة تحت ظل الراسمالية وان اختلف عنه ، فالاختلاف يدور عن اسباب هذه اللامعقولية ، ذلك ان العبث نتيجة من نتائج العمل من دون رحمة. مثلما يختلف عنه في وضع النتائج ، اذ ان اللامعقولية تزول بزوال الاستغلال .

لكن ما العلاقة بين راس المال والالة ؟ الا يفترض ان الالة ستبقى بعد زوال الاستغلال .

ان العامل « يثور على هذه الصورة الخاصة من الاداة اذ يرى فيها التجسيد التقني لرأس المال » (٢) .

ان شروط العمل القاسية تخرب الحواس ، والاخطار رهيبة من جراء التعرض للالة خلال عملها بدءا من العاهات وجرائم القتل الصناعية ، وشروط العمل السيئة ، ودفتر العقوبات مثل سوط سائق العبيد . بذلك يكون العمل سجنا للاشغال الشاقة الملطفة(٣) من ذلك :

«انه لينبغي بعض الوقت والخبرة قبل أن يوجه العمال وقد تعلموا التمييز بين الالة واستخدامها الراسمالي ، هجماتهم ضد الاسلوب الاجتماعي لاستثمار وسيلة الانتاج المادية وليس ضد هذه الوسيلة » (٤) .

لان :

« الالة وهي انتصار الانسان على قوى الطبيعة ، تصبح بين ايدي الرأسماليين اداة عبودية الانسان » (٥) .

---

(١) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ١٦٠.

(٢) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ١٦٧

(٣) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ١٦٢ ــ ١٦٦

(٤) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ١٦٩

(٥) المرجع السابق ك١ ج٢ ص ٢٤٥

ان الراسمالية تزيد ساعات العمل : ١١ ساعة ، ١٢ ساعة ، تزيدها الى « اية ساعة » ناهيـك عن الاستخدام السيىء للنساء وللاطفـال ، حيـث يكدس هـؤلاء مثل « سمـك الرنكـة » فـي غرفـة صغـيرة عفونتـها « تلقـي بـك ارضا » . ليعملوا حتـى الموت ، ليلا نهـارا . والنتيجـة مرض ، وازدياد المصابين بالسل ، فاذا حدثت ازمة ، ازدادت « كمية » المومسات بعد أن اصبحت النساء من دون عمل . اما التشاريـع الخاصـة بالمصانع ، فيمكن تجاوزها كقوانين الصحة . بل ان التشاريـع التي نكرت العمل غير المحدود « عمل الليل ، وتبديد الحياة الانسانية دون جدوى ودون مبالاة » هذه التشاريع افضل « قاتل للحشرات » وافضل محطم لاواصر الاسرة « ومهما بدا انحلال الاواصر الاسرية القديمة رهيبا وكريها في البيئة الحالية فان الصناعة الكبرى بفضل الدور الحاسم الذي تعهد به اجتماعيا قد خلقت ، من هذا الانحلال، القاعدة الاقتصادية الجديدة التي سيرتفع فوقها شكل متفوق للاسرة وللعلاقات بين الجنسين ... وتكوين العامل الجماعي من افـراد الجنسين ، ومن كل الاعمار نفسه هذا المصدر للفساد والعبوديـة في ظل السيطرة الراسمالية يحمل في ذاته بذور تطور اجتمـاعي جديد ، فالتعفن في التاريخ كما هو في الطبيعة مخبر الحياة » (١) ٠

**خلاصة الامر :**

ان سلسلة الافاعيل الانتاجية ( العمل ) الراسمالية تحقق عبودية الفرد ، بانتاجها العمل الاضافي وبالتالي فضـل القيمة ، وبالتالي علاقات اجتماعية محددة بين العامل والراسمالي ، هذه العلاقة التي تحطم كل القيم الانسانية وتحول الانسان الى الة .. الى حيوان..(٢)

ان الانسان وهو يبيع عمله يفقد انسانيته ، وهذا هو الاغتراب او الضياع ، انه تحويل الانسان الى تابع للراسمالي وبالتالي الـى

---

(١) المرجع السابق ك١ ج٢ : راجع ص ٢٢٨ — ٢٦٢

(٢) راجع ك١ ج٣ ص ٢٤ ٠ ويمكن ان يراجع القارىء في هذا الجزء الاغتراب قديما ٠

تابع للالة ولراس المال . ان ميزة التحليل الماركسي هو كشفه لهذا الجدل ، اذ ليست القضية مجرد ضياع من طرف واحد ، بل هو وبالدرجة الاولى ، اكتساب المادة الصفة الانسانية ، اي كونها أصبحت مسيطرة ، تسوق الانسان ، بعد ان فقد ارادته وانسانيته. انه عندما اغترب ، أصبح عبدا واصبحت المادة ( الالة .. الراس مال ) سيدا . وقمة المفارقة في كل هذا ، هي في ان الانسان صانع للالة ولراس المال !

★★★★

ان هذا العرض ، يطرح بمزيد من القوة ، الوضع الصحيح للانسان وموقفه من الانتاج . هل هو تابع له ام لا ؟ ان صياغة ماركس لقضية الاغتراب هذه الصياغة ، تؤكد انه لم يكن ينظر الى الانسان كتابع لقوانين الاقتصاد ، لان مثل هذه التبعية ، هي الاغتراب المرفوض ، والمطلوب الثورة عليه .

وهذا ماثل عند ماركس منذ البداية ، الا انه ، لم يتخذ منه هذا الشكل الجذري ، فهو تارة يعتبر الضياع نتيجة للعمل الراهن ، وتارة ينقل عن ريكاردو ما يشعر بأن الاغتراب هو الحقيقة الكلية ، او المبدا العام .

انه يرى ان العامل عندما يبيع عمله ، مضطر لان يبيع نفسه وان يبيع صفته كانسان ، فيكون الاغتراب ، « ان خراب وافقار العامل هما نتاج عمله والثروة التي يخلقها . البؤس الناجم اذن هو جوهر العمل الراهن » (١) .

بيد انه ينقل عن ريكاردو قوله :

« .. الامم ما هي سوى معامل انتاج . الانسان آلة للاستهلاك والانتاج ، الحياة الانسانية راسمال . القوانين الاقتصادية تحكم العالم حكما أعمى .. البشر ليسوا شيئا . النتوج هو كل شيء .. » (٢) .

---

(١) مخطوطات سنة ١٨٤٤ ص ١٠٦ و ١٠٨

(٢) مخطوطات ١٨٤٤ ص ١٤١ .

يومها كان ماركس لا يزال تحت تاثير المادية الفيورباخية ، وفي راس المال تعدى ذلك فالعمل والمادة معا . وتبعية الانسان للاقتصاد وقوانينه ليست الوضع الطبيعي . بل هي اغتراب وضياع . اما الوضع الطبيعي فهو استقلالية الانسان وحريته ككائن مبدع وككائن واع وككائن هادف ، يجادل المادة بأهدافه ، وقد اصبحت عملا منتجا يبدل الوجود . وعلى هذا النحو يرسم ماركس الانعتاق من الاغتراب .

## الانعتاق :

يتابع ماركس تحليلاته العلمية للاقتصاد . وسنقف قبل هذا ، تاركين العلم لننتقل الى الفلسفة . والسؤال هو ان نميز تلك اللحظة التي تدخل فيها الفلسفة الى العلم . العلم يصف الواقع وهو يخبرنا ان البؤس الانساني يبلغ قمته مع العمل الراسمالي . والعلم يتنبأ بانه لا بد ان تتبدل الحالة ، ما دام البؤس قد بلغ أوجه . فيتحطم الراسمال نتيجة للاغتراب الذي سيتلوه وعي الطبقة العاملة بحقيقة وضعها وبحقيقة اهدافها ، ونتيجة لهذا الوعي تنتظم هذه الطبقة لتثور وتلغي الاستغلال والاغتراب . والان هل هذه النبوءة جزء من العلم ام لا ؟ ثم هذا الاقتراح عن وسائل نفي الاغتراب هل هو من العلم ام لا ؟

لم تستطع الماركسية اللاحقة ان تتغلب على هذه الصعوبة ، لان نبوءة ماركس فهمت كجزء من التحليل العلمي ، وهذه النبوءة تصر على حتمية الثورة في البلاد الراسمالية . يقول ماركس عن انكلترا : « فهذا البلد سيلعب اذن بالضرورة الدور الاول في الصورة التي نرسمها » (١) .

وقد استغل عدم صدق النبوءة لبيان فساد النظريات العلمية في راس المال . ولم يتم التغلب على هذه الصعوبة ، لانه لم تحدد بدقة لحظة الانتقال من العلم الى الفلسفة . وهي

---

(١) رأس المال : ك١ ج٣ ص ٢٤٣

لا تستطيع أن تفصل النبوءة عن العلم نتيجة لالتصاقها بهيجل . ان الجدل الهيجلي وجبريته يقفان كعائق قوي أمام الرؤية الصحيحة . ذلك أن النبوءة الماركسية وان تعلقت بالضغط الراسمالي المتزايد، الا انها تعلقت بتنظيم الثورة من قبل الطبقة العاملة التي وعت مصيرها واهدافها . وكلا الامرين يجب ان ينظر اليهما من خلال « نفي النفي » . وبذلك نحيل الموضوع الى الجدل وحتميته من دون النظر الى فعالية الانسان ، الا بكونها حلقة من حلقات هذا الجدل، مفروضة سلفا ، من هنا الحديث عن حتمية الثورة .

وفي الحقيقة ان الجدل هو الطريقة المسيطرة في استخلاص الافكار في راس المال . واعم دائرة جدلية هي كما يلي :

الموضوع أو القضية : الانسان خارج العمل في النظام الراسمالي. حيث يشعر بوجوده ، حيث هو حر ، يملك عمله ، وانسانيته .

النفي: الانسان وهو عامل، باعمله. والعمل ينتج الاغتراب . الاغتراب هو النفي . النفي الواقعي لانسانية الانسان ، النفي الزمني ، النفي في الطريقة .

نفي النفي : صراع الاضداد ، صراع الطبقات ، والنتيجة الغاء الضياع ، الغاء الملكية الفردية . الغاء الطبقات ، اعلان الاشتراكية (١) ..

نفي النفي : تبديل العالم ، واعلان انسانية الانسان ، باعطائه حريته ، بحصوله على حريته المسلوبة ، بعمله وفق هذه الحرية ، بتعديل الضرورة ، بتبديلها : « لم يفعل الفلاسفة حتى اليوم سوى تفسير العالم بطرق متنوعة ، والحال ان المقصود هو تغييره . » (٢) نعم تغيير العالم ، وتغيير الضرورة . بوضع الحرية في صلبهابوضع الاهداف الانسانية فيها .

---

(١) راجع راس المال ك١ ج٢ ص ٣١٦ — ٣٢٠ .

(٢) الفرض الحادي عشر عن فيورباخ ، راجع ( لودفيج فيورباخ ) انجلز ص ١١٠. ترجمة فؤاد أيوب : دمشق .

هذا الجدل ماثل في راس المال وفي سواه (١) . بيد ان ما يفسره، وخاصة المرحلة الاخيرة ، ليس راس المال ، بل « الماركسية » قبله ، «الماركسية» الملتصقة بفيورباخ وبهيجل ، وخاصة بهيجل . على هذا النحو فهم نفي النفي كمرحلة حتمية منطقية وواقعية .

قد يقال ان نتيجة الاغتراب هي سيادة راس المال ، وبما هو شيء له قوانينه ، وما نفي النفي الا كشف لهذه القوانين . وهذا صحيح ، لكنه يشكل جانبا من الموضوع لان نفي النفي عمل واع وارادي . ولذا فهو يطرح مسألة الحرية التي يأباها جدل هيجل وجدل الماركسية — فيما عدا راس المال — .

ان نفي النفي ، يؤكد انسحاب العامل من خضوعه الكلي لراس المال ، ما دام قد اصبح مضادا له وان بقي داخل المصنع .

وبذلك فان نفي النفي يطرح حدوده ومعناه كقانون يصور الواقع وينبأ بما سيكون . ويطرح امكانياته وتعلقه بقوى اخرى تسيره وتجعله هدفا . وبذلك نكون قد حددنا لحظة الانتقال من العلم الى الفلسفة ، وفي الوقت نفسه نكون قد استعدنا عمل الانسان بما هو قوة فعالة تجاه الارض .

و«الماركسية» شاءت الالتصاق بهيجل وحده ،وبحتميته (اوبالاحرى جبريته ) مؤثرة عدم طرح القضية ، وبذلك فنفي النفي جزء من التحليل العلمي ، والحرية ما هي الا تفهم الضرورة والعمل بحسبها لا غير . وهذا لا يفسر لماذا لم تصدق النبوءة ، كما انه لا يدخل في حسابه التحليل العلمي للعمل كما توضح في راس المال .

لم يكتب ماركس الفلسفة بعد راس المال . لكننا نستطيع ان نجد

---

(١) في العائلة المقدسة ص ٤٠ و ٤١ وفي البيان الشيوعي . الطباق بين البورجوازية والبروليتاريا ونفي النفي زوال الطبقتين معا . في جميع الاحوال نظريا القضية قبل ان يبيع الانسان عمله الاضافي ، اي عندما كان يعمل لحسابه الخاص ، خاضعا لنوع اخر من الاستغلال . والنفي يكون بدءا من عملية البيع نفسها ، بدءا من تشكل الاغتراب .

المؤشرات لتلك الفلسفة بعيدا عن حتمية هيجل ، وكنتيجة لكون العمل هو الاساس .

ان « الخطأ » هنا هو خطأ في التقدير الزمني لا اكثر . والثورة مشروطة بوعي الطبقة العاملة وتنظيمها لنفسها وبصنعها ما يحطم اغلالها . ولا حل آخر لنفي الاغتراب ، لا حل الا بانتصار حرية الانسان على الاستغلال وعلى العبودية ، والحرية لا تكون الا بالعمل .

اذن فنفي النفي مشروط باستعادة حرية الانسان . وبوضعه اهدافه موضع التنفيذ . ذلك أن نفي النفي بما هو قانون وصفي للواقع ، لا يشير الى قيمة محددة ، ولا يضع اهدافا ، لانه متعادل القيمة ، مثلما الواقع متعادل . وهو لذلك يتقبل الاهداف المناسبة من اي جاء مصدرها . ولذا طورت الراسمالية نفسها ، ووضعت اهدافا تؤخر لحظة انفجار الطبقة العاملة . ابدا لا يشير الواقع الى قيمة . وانما الانسان حامل القيمة ، وهو وحده الذي بامكانه أن يسير الوجود بحسب قيمه . وما حدث هو أن الوجود تقبل قيم الراسمالية لضعف الطبقة العاملة .

نقطة الافتراق هي تحديد كيفية وضع الانسان اهدافه . هل يضعها بحسب قيمه أم بحسب الوجود ؟ والماركسية بعد راس المال، ونتيجة لعدم كتابة ماركس لفلسفته التالية ، والتصاقا بهيجل ، تجد أن الاهداف توضع بحسب الوجود بما يفرضه الوجود .

ومثل هذا القول يؤدي الى نتيجة تبدل كل معطيات«رأس المال » . انها تجعل الانسان كحامل للاهداف لا يختلف عن النحل الا بوعيه لمنعكسات الوجود وما هكذا فهم ماركس الامر . لان ( كما نقلت سابقا ) الانسان عنده يحقق بالفعل ذاته هدفا خاصا يعيه ويحدد اسلوب تصرفه . فالانسان هو حامل الاهداف الوحيد .

ثم ان مثل هذا القول يجعل الاغتراب حالة كلية بالنسبة للانسان، لا حالة خاصة اقتضاها العمل الراسمالي . معنى ذلك أن الانسان في ثورته ينسجم مع الوجود وقوانينه ، فيحقق ما يقتضيه الجدل ، وبذلك يظل تابعا للضرورة ، ويستمر الاغتراب . .

والتحليل التاريخي ، يقدم أداة لتبرير هذا المفهوم ظاهريا ، اذ

اننا نجد قبل الاغتراب الراسمالي الاغتراب الاقطاعي وهكذا نصل الى المشاعة الاولى . فالاغتراب مقترن بالاقتصاد ، واذن فهو حالة كلية مستمرة .

واخطر ما في هذا التحليل الهيجلي ، كونه لم يعبأ بالغاء الاغتراب بعد الثورة ، وبالتالي يصبح الغاء الملكية الفردية غاية في حد ذاته. وبذلك ينتقل العامل من الاغتراب الراسمالي الى الاغتراب الاشتراكي كوضع صحيح تفترضه ظاهرة « الاغتراب » بحد ذاتها ، ما دامت الحرية ليست الا تفهم الضرورة ، وما دامت قوانين الاقتصاد هي الحكم النهائي .

بيد ان ماركس اتجه اتجاها اخرا ، فالثورة عنده انهاء للاغتراب، والاغتراب عندما ينتهي ، يعني أن أمامنا انسانا يعمل وفق اهدافه، وان امامنا انسانا حرا . وهذا هو الوضع الصحيح .

منذ البداية أشار ماركس الى هذا التصور ، فالانعتاق يعني التخلص من سيطرة الانتاج على الانسان .

يقول ماركس :

« .. ان انعتاق المجتمع من الملكية الخاصة ، الخ ، من العبودية يجد تعبيره في شكل سياسي هو انعتاق العمال ، ليس وكأن الامر هو فقط انعتقاهم ، بل **لان هذا الانعتاق يتضمن الانعتاق الكلي للانسان ، والحال هذا متضمن في ذلك ، لان كل استعباد الانسان متضمن في علاقة العامل بالانتاج ولان كل علاقات العبودية ما هي الا تلونات ونتائج هذه العلاقة » (١) .**

ويقول بعد ذلك : بعد ربع قرن :

« ولا يمكن استئصال هذه الجمعية ( جمعية الامية ) مهما أريق من الدماء . ولاستئصالها ينبغي على الحكومات ان تستأصل طغيان الراسمال على العمل ، اي ان تستاصل أساس وجودها الطفيلي الذات . » (٢)

---

**(١) مخطوطات ١٨٤٤ ص ١٨٥**

**(٢) مخطوطات ١٨٤٤ ص ١٦٤**

هو ذاك اذا . من البداية ، الضياع ، العبودية ناتجة عن سيطرة الانتاج ومع الانعتاق تزول هذه التبعية . معنى ذلك ان سيطرة الانتاج ليست قانونا عاما .

حتى الارض تصبح تابعة للانسان :

« ان الغاء الاحتكار الذي بلغ اكبر واوسع وجود ممكن له ، هو تدميره الكامل . ان الاشتراك المطبق على الارض له من الوجهة الاقتصادية مزايا الملكية العقارية الكبيرة ، وهو اول ما يحقق الاتجاه الاولي للتقسيم اي المساواة ، كما انه يعيد بشكل عقلي وليس بواسطة العبودية والسيطرة وصوفية حمقاء تجاه الملكية علاقة الانسان العاطفية بالارض : فالارض تكف عن كونها موضوع مقايضة، وبالعمل والتمتع الحر تعود مرة اخرى ملكا حقيقيا وشخصيا للانسان (١)

بيد أن هذه النفحات الفلسفية ، ستلتبس بنقيضها ، وماركس لا يزال تحت تأثير هيجل وجدله ، الى ان يبدأ بحثه العلمي ، فتصبح هذه النفحات ذات طابع عقلاني متناسق في راس المال :

ونأخذ على ذلك مثلا ، ان من الافكار الشائعة في الماركسية : « ان العالم الديني انعكاس للعالم الواقعي » . وبشكل اوسع ، ان كل عالم الافكار انعكاس لعالم الواقع . وهي جملة تاخذ طابع المذهب الوثوقي ( دوغمائي ) ، وكأنها فكرة كلية ، مطلقة . ولكن ما عرضناه سابقا ، يجعل هذه الفكرة حالة شاذة تخص مرحلة « النفي » اي مرحلة الاغتراب . ما الدليل ؟ الدليل هو انها ستزول في مرحلة « نفي النفي » اي في مرحلة الانعتاق . الدليل ، ما يقوله ماركس في راس المال :

« والانعكاس الديني للعالم الواقعي ، لا يمكن عامة ان يزول الا عندما تقدم شروط العمل والحياة العملية للانسان علاقات شفافة وعقلانية مع اشباهه ومع الطبيعة . والحياة الاجتماعية

(١) الحرب الاهلية في فرنسا : ص ١٠٦ دار التقدم ـ موسكو ١٩٧٠ .

التي يؤلف الانتاج المادي والعلاقات التي يقتضيها اساسا لها ، لن تنفلت من الضباب الصوفي الذي يحجب مظهرها الا في اليوم الذي سيتجلى فيه عمل الناس المتشاركين تشاركا حرا والمتصرفين تصرفا واعيا والمتحكمين في حركتهم الاجتماعية الخاصة . ولكن ذلك يقتضي في المجتمع جملة من شروط الحياة المادية لا يمكن ان تكون هي نفسها سوى نتاج نمو طويل ومؤلم » (١) .

ولا يمكننا ان نمضي ابعد من هذا ، وقد كان ماركس حذرا في تحليلاته العلمية ، لا يذكر الا ما تقتضيه الحال ، ومن هنا كونه لم يتكلم عن المجتمع المقبل كثيرا . بيد ان مثل هذا الكلام هو ما كنا ننتظره بعد انشاء النظرية العلمية . لان محل الفلسفة ياتي بعد العلم ، لتخطط ولتضع الاهداف ، وهو ما لم يتم .

لذا كانت الرجعة الى الفلسفة الاولى قبل راس المال لسد النقص وكأن ماركس لم يتبدل ، وكأن مجهوده العلمي المضني لم يأت الا ليبرهن على صدق مقولات الشباب !

ومن هنا سيسود **قول انجلز** « ان المفهوم المادي للتاريخ ينطلق من الموضوعة القائلة ان الانتاج ... هو اساس كل البنية الاجتماعية » (٢) .

وبذلك عمم انجلز قضية الضياع وجعلها قانونا كليا يلتصق بالانسان الى الابد من دون مفك .

وبذلك الغى اهمية الانجازات العلمية في راس المال ، واخضعها لقوانينه ، فالفلسفة تجر العلم الى صفوفها . هكذا الامر .

ولا باس بين الحين والحين ان نتحدث عن الحرية ، كوعي وكتخطيط ، ولكن كوعي للضرورة وما تخططه !

وبذلك يركض انجلز وراء هيجل بدل ان يضع الفلسفة المناسبة للانجاز العلمي في راس المال .

---

(١) راس المال ك١ ج١ ص ١٣٤ و ١٣٥ .
(٢) انتي دوهرنغ ص ٢٤٢ ترجمة فؤاد ايوب : دمشق .

**خلاصة الامر :**

نقد ماركس هيجل وعكس فلسفته ، فأصبحت الضرورة وصفا ماديا ، ثم اتجه للعلم فتبين ان الضرورة المادية يعدلها الانسان المفكر العامل ، بيد ان سوء الوضع الاقتصادي يجعل الانسان فاقدا لاهدافه ولحريته ، وبالتالي يجعل راس المال انسانا حرا هادفا يسيطر على الانسان ويفقده انسانيته . وتوقف .

سار ماركس من الفلسفة الى العلم ، ومن المفترض ان يرجع بدورة أخرى من العلم الى الفلسفة ليعدل ما هو غير منسجم مع نتائج عمله . وهو ما لم يفعله بسبب وفاته ، لكنه اشار الى ان ازالة الوضع الاقتصادي السيىء يولد الحرية ويعيد للانسان انسانيته . هذه الانسانية التي ليست سوى وعي الواقع ، ووعي الاهداف ، وحرية التصرف لجعل الوجود له .

لا يعني هذا ان ماركس تخلص نهائيا من هيجل ، اذ ظل يعتبر مثله الجدل كفعل خلاق ، يحمل غايات ، من هنا تنبؤه الخاطىء . فالجدل بما هو لوحة تصور الواقع ، هو مثل الواقع ، له مسار . وليس له غايات يحققها .

يبقى مع ذلك رأس المال كتحليل اقتصادي علمي فريد ، ينتظر الفلسفة التي تخط له الاهداف ، ولتجعله علما انسانيا . وليحل انجلز النقص ، ضم كل ما كتبه ماركس ، فاكتملت الماركسية كفلسفة وكعلم .

بيد ان القضية ليست جمع كلمات ، بل بيان تحليلي . متى يكون العلم ومتى تدخل الفلسفة . اين تقف الضرورة ، وكيف تدخل الحرية ؟ واطروحات هيجل تغني عن البحث ، ويكفي أن نتبعفيورباخ في القلب ، ثم يكفي ان نحرك فيورباخ الساكن . ففيورباخ يصحح هيجل ، وهيجل يصحح فيورباخ ، وراس المال على الرف .

لقد كان الراسماليون اذكى ، فوعوا القضية على نحو افضل ، واطفأوا الحريق ، او هكذا خيل اليهم. لقد وعوا جيدا ، ان العمل هو الاساس كما بين ماركس ، ووعوا أكثر من هذا أن الوجود لا

يقدم اهدافا ولن ينتج ثورات اذا وضعنا فيه اهدافا اخـــرى ، وقد وضعوا اهدافهم هم .

وسوف يأتي لينين . لقد تحدى لينين الوثوقية ونازع خليفةانجلز . عاد واتبع طريق ماركس وحلل الواقع تحليلا علميـــا ، واكتشـــف أطروحة الامبريالية وتوسعها ، ونبذ ( نفي النفي ) كقانون يصنـــع الثورة ، ووضع امكانية قيام ثورة اشتراكية في بلد واحد ولو لـــم تصدق عليه التحليلات الجدلية ، ووضع أكثر من هـــذا ، وهو أن الثورة يصنعها التنظيم والوعي والعمل الدائب . وبالعمل الدائـــب كانت ثورته . وبالجدل الواعي لمعطيات الوجود الموضوعية كان انتصاره .

# الفصل الثاني

# الفلسفة الماركسية

## حدود الفلسفة والعلم :

ان سياق راس المال يقترح علينا فلسفة تتناسق مع العلم المعروض فيه ، وعلينا أن نبذل جهدا مضاعفا لبيان عناصر هذه الفلسفة ومن ثم لوضع هذه الفلسفة في سياق التاريخ الفكري للبشرية ، لتأخذ مكانها كجواب مكتمل يعلو فوق كل الاجوبة .

والامر ليس هينا ، فراس المال كتاب علم . فما العمل ؟ جرت العادة بأن تؤلف الفلسفة الماركسية من تجميع كل ما قيل ، وهكذا يقفز المؤلف من كلمة لماركس الى كلمة لانجلز ، ومن كلمة قيلت في الشباب ، او في حاشية او في مقدمة الى كلمات من هنا وهناك ، ثم يقال لنا هذه هي الماركسية ، الفلسفة المتكاملة . فهل نلجأ الى مثل هذه المحاولات ، لنعرض لوحة متماسكة ، مغمضين العين عن كل الالتباسات ؟ الاجدى أن نتساءل عن الفلسفة التي تكمل علم ماركس الناضج في رأس المال ، من دون ان نعتمد على ذلك الاختيار المنحاز الذي يسوق الكلمات المتناسقة ويتغافل او يتأول الكلمات المعارضة ، وبذلك نضع اخر انتاج ماركس في سياقه عبر تاريخ ماركس اولا ، وعبر تاريخ الماركسية ثانيا ، وعبر سياق تاريخ الفلسفة أخيرا .

## ماذا يقترح راس المال ؟

انه كتاب علمي يبحث في قوانين المجتمع الحديث الاقتصادية ، وقد كشف عن مقولة العمل الغائي كاساس مبدئي في الانتاج ، وبذلك يتعين لنا طريق البحث الفلسفي عبر هذه المقولة نفسها ، فماذا يمكن للفلسفة أن تقول ها هنا ؟

وحتى نستطيع ان نجيب ، علينا أن نحدد مسبقا ، الحدود الفاصلة التي تميز بين القول الفلسفي والقول العلمي . اين يقف العلم واين تبدأ الفلسفة ؟ عندها يمكننا ان ننطلق لنحدد موضوع كل منهما .

وهكذا يبدو لنا راس المال جذريا في طرحه ، يستعيد ، ويتطلب منا ان نستعيد القول الفلسفي من أولياته . وليس من العبث مثل هذه الاستعادة ، فراس المال وليد هذا العصر ، ومع ازمة العلم المعاصرة تستعاد قضية الحدود ، ولذا فمن الطبيعي وعلى نحو أصيل أن تطرح هذه القضية بدءا من علم العمل أو بدءا من علم الاجتماع الماركسي .

الفلسفة ، بأهم معانيها ، بحث في الوجود ، عند ارسطو ، والسؤال عن الوجود أولي ، وهو موضع اشكال مستمر . وهو ينحل الى سؤالين : عن ماهية الوجود ، وعن مبدئه .

وفي العصر الحاضر نجد الجواب العلمي ، فماهية الوجود ليست الا الذرات وما تحويه من شحنات . ومبدأ الوجود هو ما يضعه العالم كقانون يحدد حالة هذا الكون المصغر .

اذن فالسؤال عن الوجود سؤال علمي ، له جواب علمي ، وبذلك لم يبق ذاك السؤال الفلسفي الاول . واذن فان أهم انجاز معاصر هو نقد التحديدات الارسطية للفلسفة بما هي بحث في الوجود وفي مبادئه الاولى . ولكن ما هو مصير الفلسفة بعد هذا ، وما هو موضوعها بعد هذا الاستبعاد ، هل ننفي الفلسفة وضرورتها ؟

في راس المال دراسة علمية للوجود الاجتماعي التاريخي ، فهو اذن متابعة للقول بأن دراسة الوجود ـ وهنا الوجود الانساني ـ

انما هي دراسة علمية وليست فلسفية ، بيد أن ماركس لم يتوصل من هذا الى نفي الفلسفة ، واذن فالمطلوب هو تحديد جديد لموضوع الفلسفة بعد ذاك النفي للتحديد الارسطي .

لنعد الى هيجل ، فعنده « الفكرة هي المطلق ، هي الوصية العالية ، وهي القوة الميتافيزيقية التي لا يقاومها شيء ، انها ميل السبب ليعرف ذاته مرة اخرى ، لكي يتذكر ذاته في كل شيء » (١) في اغترابها في الوجود ، ثم في وعيها لذاتها مع الانسان .

وقد قلب فيورباخ افكار هيجل ، فالمادة هي المطلق ، وما الفكرة الا انعكاس المادة على وعي الانسان ، وما الفكرة المطلقة الا اغتراب فكرة الانسان وهدفه لتتشيأ في ذات خارجية .

والماركسية تأخذ عن فيورباخ قلبه لهيجل ، ثم تصحح مادية فيورباخ بجدل هيجل وبذلك تتكون المادية الجدلية والتاريخية .

بيد ان هذا التلخيص يبعد أهم العناصر ويلغي الكثير من الاسئلة، فلنتناول الأمر على نحو اقرب ، عبر نص شهير لماركس يقول :

« ولا تختلف طريقتي الديالكتيكية في اساسها عن الطريقة الهيجلية فحسب ، بل هي ، أيضا ــ عكسها بالضبط . فحركة الفكر التي يجسمها هيجل تحت اسم المعنى هي صانع الواقع الذي ليس هو سوى الشكل الظواهري للمعنى . اما بالنسبة لي فالامر على العكس ، اذ ان حركة الفكر ليست الا ارجاعا فكريا لحركة الواقع، نقلت وحملت الى دماغ الانسان . » (٢)

هنا ايضا قضية القلب الفيورباخي . فكيف نفهم الامر ؟ وما هي المفاصل التي يستعرضها ؟

المادة اولا ، وهي في تطور مستمر ، نتيجته العليا انتاج الشعور،

---

(١) بؤس الفلسفة : ماركس ص ١٠٩ ت: ندرة يازجي ط ٢ دار اليقظة دمشق . ( سنة ١٨٤٧ )

(٢) راس المال ك١ ج١ مقدمة الطبعة الالمانية الثانية ص ٣٧ .

الدماغ عند الانسان ، فاذا ما انعكست المادة على الدماغ كانت الافكار . فما لدى الانسان ليس أكثر من قراءة للوجود ، وقراءة الوجود هي العلم ذاته ، فهل معني ذلك ان كل ما في فكر الانسان هو القوانين العلمية ؟ اذن ما الفرق بين الانسان والحيوان ؟

الفرق هو وعي الانسان أولا ، ثم هو غائية الفعل الانساني . هذه الغائية التي تتضح بكونه يحمل أهدافا توجه تصرفه كما مر معنا (١) والتي تدل على حريته (٢) فكيف تكون فاعلية الانسان حرة ان جعلنا هذه الاهداف من تلك الافكار التي تنعكس نتيجة لقراءة الواقع ؟ وهل يكون هناك فرق بين الانسان والنحلة ان كانت الاهداف مجرد ارجاع بسيط ؟

اذن لنميز في عملية القلب عدة أمور متسائلين عما حل بالفكرة المطلقة ؟ عن مكان الانسان ؟ عن فعاليته وغائيته في الوجود؟ بل لنتساءل عن الفرق بين الماركسية والمادية الساذجة ، وعن الفرق بين الماركسية ومادية فيورباخ ؟ وما دلالة ما هو تاريخي بالنسبة للكائن النوعي ؟

المادة اولا ، وهي تنعكس على الدماغ ، بيد ان الانسان التاريخي ليس هو ذاك الانسان البدائي ، حتى نكتفي بمثل هذا الارجاع البسيط ، والفرق الذي يقترحه ماركس ، هو كون « النتيجة التي يؤدي اليها العمل موجودة ، مثاليا ، مسبقا ، في خيال العامل ، لا لانه يحدث تبدلا في المواد الطبيعية فقط ، بل لانه يحقق بالفعل ذاته هدفا خاصا يعيه ويحدد أسلوب تصرفه كقانون ، ويجب ان يخضع ارادته له . . (٣) « لهذا فقط فاعليته هي فعالية حرة » (٤)

الانسان يدرك الوجود ، بيد انه لا يدرك هذا الوجود مكتوف اليدين وانما يدركه عبر تاريخ الانسانية الذي تحول الى ذاكرته

---

(١) راس المال ك١ ج١ ص ٢٨١
(٢) مخطوطات ١٨٤٤ ص ١٧٩
(٣) راس المال : ص ٢٨١
(٤) مخطوطات ١٨٤٤ ص ١٧٩

كأهداف وكغايات ، وكمثل وكتجارب ، كفلسفة وكعلم ، وهو عندما يضع هدفا انما يسترشد بكل ذاك الارث ، فيختار ما يتناسب مع الظرف المحيط به ، ومع ما يدركه من الوجود ، وفي هذا الاختيار انما تكون حريته .

لقد عكس ماركس هيجل ، مثله في ذلك مثل فيورباخ ، بيد ان الفارق شاسع . ان العكس « أو القلب » يفترض نوعا من التبادل المتوازي ، وهو ما يؤكده فيورباخ ، وبذلك فان الفكرة المطلقة عنده تندرج في الوجود ( حينا وفي الانسان حينا اخرا ) من دون ان يتعمق هذا القلب ، ومن دون ان يفطن الى ان الجبرية الهيجلية ستبقى مع مثل هذا القلب ، وسيان اكان السبب الاول مزروعا في السماء أم في الارض . أما ماركس فيتعدى هذا الامر في حديثه عن فعالية الانسان الحر ، وفي حديثه عن الفرق بين الانسان المهندس والنحلة ، وبذلك نستطيع ان نؤكد ان الفكرة المطلقة عنده لم تندرج كلية في الوجود ، لتستعاد كقراءة له .

لقد عكس ماركس هيجل ، فاعتبر المادة اولا ، والسؤال الذي يطرح نفسه تلقائيا ، هل اصبحت المادة حاملة لصفات الفكرة المطلقة والتي كانت عند هيجل هي الاولى ؟ هل أصبحت المادة هي المطلق ، هي الوصية العالية هي القوة الميتافيزيقية التي لا يقاومها شيء ؟ اذا كان الامر كذلك ، فما ينعكس في الدماغ هو كل شيء ، وبالتالي ، فهذا الذي ينعكس اي العلم ينفي كل فلسفة ، لانه يقول كل ما هنالك ، وعندها علينا ان نكرر جبرية جديدة ننسبها الى هذه المادة ، منكرين على الانسان غائيته ، وبالتالي حريته ، ومنكرين قول ماركس عن الفرق بين النحلة والمهندس ، والاجدى أن نكرر مع هيجل حديثه عن الحرية كخدعة عقلية .

بيد ان الامر ليس كذلك ، فالمادة حيادية ولها قوانينها ، ولم تصبح الوصية العالية ، ولا القوة الميتافيزيقية التي لا تقاوم ، بدليل واحد هو كون الانسان يبدل الطبيعة وكونه ذا فعالية هادفة ، وبدليل اخر هو كون الانسان مخترع الفكرة المطلقة من دون ان يكون لها مقابل في الوجود ، اي من دون أن تكون انعكاسا لشيء ( لذات ) واقعية في الوجود .

فاذا كان العلم ، قراءة للوجود ، يعكس ما في الوجود ، فهو لا يقول القول كله . وهنا بالذات يتحدد موضوع الفلسفة ، كمكمل لموضوع العلم ، اي ان يكمل القول ، يكمله بالحديث عن الغايات الانسانية ، فالفلسفة بحث في الغائية الانسانية . ما مصدرها ؟ ما هو محل الانسان الحامل لها — الحامل الوحيد — ؟ كيف نبرر هذه الغائية الحرة ؟ كيف يعمل الانسان في الوجود ؟ كيف يتقبل الوجود ذو المسار الحتمي أهدافا انسانية تظهر الحرية ؟ الا تتعارض هذه الحتمية مع الحرية ؟

ان راس المال يشير الى الطريق ، وهو ككتاب علمي يقرا الوجود الاجتماعي لا يجيب ، وعلينا ان نستشف الافاق ، لتحديد الفلسفة المكملة لهذا الكتاب العلمي . عندها فقط ، يمكن أن نقول عن حق ، انه قد صدرت الفلسفة التي تخطت تحديدات أرسطو ، الفلسفة التي تقف امام ذاك الانجاز العلمي الضخم .

الفلسفة بالمعنى الذي يشير اليه ماركس في راس المال ، هي بحث في الغايات ، اي بحث تخطيطي وتشريعي ، وبذلك يستعيد الحلم اليوناني عن الفيلسوف السياسي ، المخطط والمشرع ، وهذا ما عناه انجلز عندما كتب « ان الحركة العمالية الالمانية هي وريثة الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » (١) .

العلم يقرأ الوجود ، والفيلسوف يحدد الغايات المناسبة لهذا الوجود بشكل برامج بحسبها تكون حركة المجتمع لاستعادة انسانية الانسان المضاعة ، ولحل جميع تناقضات الوجود الانساني ، بدءا من التناقض بين الملكية الخاصة والماهية الانسانية الى التناقض بين الانسان والانسان ، بين الانسان والطبيعة ، بين الحرية والضرورة .. الخ .

★★★★

على هذا النحو نحدد حدود كل من الفلسفة والعلم ، وبالتالي نحدد الاقوال في الماركسية ، وهي تشهر سلاحها ، لتحارب الفلسفات

---

(١) لودفيج فيورباخ : انجلز ص ١٠٥ ت : د فؤاد ايوب دار دمشق

المثالية المسخرة لخدمة الراسمالية والرجعية .

ان كل حديث عن المادة ، انما هو حديث علمي ، اتخذ سمة الفلسفة ، ضد المثالية ، من ذلك تحديدات لينين : « ان المادية هي الاعتراف بوجود «الاشياء في ذاتها» او خارج الذهن، وتعتبر الافكار والاحساسات بالنسبة اليها نسخا او صورا عن هذه الاشياء.» (١) « ان المادة أولية ، بينما الفكر والشعور والحساسية منتجاتلتطور متقدم جدا » (٢) .

بيد ان هذه الاحالة الى العمل ضد المثالية لا تحل الاشكال الذي يظهر بوضوح ، ترى اليس الامر سقوطا في تحديد ارسطو للفلسفة كبحث في الوجود ؟ اليس الامر ان الماركسية لا تزال ترى ان المادة تدرس فلسفيا وعلميا ؟

يرى غارودي هذا ( قبل ارتداده الاخير ) ، فالبحث في المادة مركب ، وهو يطرح سؤالين هما : ما المادة ؟ وكيف هي المادة ؟ والاول فلسفي والثاني علمي . الاول « وتجيب المادية على هذا السؤال : هي الواقع الموضوعي المستقل عن الروح والتي لا تحتاج الى الروح لكي توجد » والثاني « وتجيب المادية على هذا السؤال : هذه هي مهمة العلم بأن يعطي عن المادة تمثيلا تقريبيا متزايدالكمال على الدوام » (٣) .

فغارودي ، يعود الى ارسطو ، ليقر معه بأن الفلسفة والعلم يدرسان الوجود معا ، ولكنه يختر مبادىء الوجود الارسطية ليجعلها مجرد اقرار لوجود المادة بصورة مستقلة عن الوعي .

ولا يكفي في الرد بأن نقول ان الوجود بحث علمي فحسب ، وان العلم قد الغى الاسئلة القديمة « ما ، كيف ، مما .. » ووضع سؤاله عن الكم . وان الاحالة الى الفلسفة لا تغني ، لان الفلسفة لا يمكنها ان تضيف الى ما يقدمه العلم اي اضافة مجدية .

---

(١) المادية والمذهب التجريبي النقدي : لينين ص ١٣ ت : د منير مشابك . داردمشق

(٢) المرجع السابق ص ٦٤

(٣) النظرية المادية في المعرفة : روجيه غارودي ص ٢٣ ت: ابراهيم قريط : داردمشق

لا يكفي هذا لان الاشكال تتعرض له المثالية : ( وعلى وجه الخصوص : بركلي ) ولذا فالمادية تنافح باقرار المادة مستقلة عن الادراك بوجودها . بيد اننا نلاحظ ان صيغة الجواب لا تحدد شيئا محددا . بل تنفي علاقة ، ذلك لان أساس القضية كما صاغها بركلي محدد الشكل الايجابي ( منطقيا ) للقضية ، انه ينكر الجوهر المادي ( بالمعنى الارسطي = الشيء في ذاته عند كانط ) ولا ينكر وجود الاشياء . وانما يحدد هذا الوجود بالمعرفة ، فالمادة عنده هي المدركة حسيا . وبما هي اشياء حسيةفهي غير مستقلة عن الذي يدركها (١).

من هنا ياتي الرد المادي في صيغته السالبة لينفي تعلق المادة بالادراك ، وليعلن استقلالها . لكن على اي نحو تستطيع الفلسفة ان تقر المادة بشكل مستقل عن الادراك ؟ اننا لا نستطيع اقرار المادة الا من خلال ادراكنا لها ، الا من خلال جدلنا معها . ان الجدل يفترض تلازم الادراك والمادة ، وما دمنا نحافظ على هذا التلازم ، فيمكن ان نرد على بركلي ، بأن كل ادراك هو ادراك لشيء . وانه لا ادراك من دون وجود لهذا الشيء . لكن الا نكون بذلك قدانسحبنا من دراسة الوجود لندخل نظرية المعرفة ؟ ثم اليس ما يفيدنا أنتذكر ان هذه النظرية قد أصبحت جزءا من العلم : علم النفس الحديث ؟

ان الفلسفة لا تستطيع ان تقدم لنا اية مساعدة ، بما تقرره ، وهي بذلك . لا تضيف شيئا الى العلم ، والعلم وحده يقول الوجود . ما

---

**(١) يوجد سوء فهم تاريخي لهذا الفيلسوف ، نلخص رأيه على النحو التالي :**
**ان الوجود بما هو جوهر غير مفكر هو غير فعال ، ولذا لا يصح أن يكون علة للادراك ، ولذا لا يقوم وحده ، بل يقوم بعقل الله الذي صنعه . ان جوهر المادة هو عقل الله ، وهي موجودة فيه منذ الازل كنماذج ، وما الخلق الا العملية التي اصبحت فيها الاشياء مدركة من قبل الانسان وفقا لقوانين الطبيعة .**
**وهو لا ينكر وجود المادة ، وانما ينكر وجود الجوهر المادي الذي اقترحه ارسطو ليكون حاملا للاعراض ، ولتقوم به المقولات . فجوهر المادة هو عقل الله . اما الاشياء فهي اشياء حسية ، وبما هي كذلك فهي مجموع الصفات الثانوية والاولية التي يعقلها الانسان ، وهي بذلك غير مستقلة عن الحواس التي تدركها .**

المادة ؟ يقول العلم : انها ذرة مؤلفة من بروتونات والكترونات و . . الخ ٠٠ فما قيمة الانشاء الفلسفي وماذا يضيف ؟!

****

وقد ذهب **انجلز** هذا النحو ، عندما ذكر ان الماركسية : « ما عادت تحتاج بعد الان الى اية فلسفة تقف فوق العلوم الاخرى ، فلا يكاد كل علم مخصوص يوضح المركز الذي يشغله في التسلسل العام للاشياء ، ولمعرفتنا بالاشياء حتى يصبح العلم المخصوص الذي يعالج ذلك التسلسل أمرا عديم الجدوى ( او غير ضروري ) وان ما بقي على قيد الحياة بصورة مستقلة من كل الفلسفة السابقة هوعلم الفكر وقوانينه اي المنطق الصوري والجدلية . اما الاشياء الاخرى جميعا فقد ذابت في العلم الايجابي للطبيعة والتاريخ » (١) ٠ « وفيما عدا ذلك ، فاذا لم يعد الامر يتطلب اي فلسفة بعد الان ، فانه ليس اذن ثمة حاجة بعد الان الى اي نظام ، حتى ولا اي نظام فلسفي طبيعي » (٢) ٠

فهو اولا يرفض الفلسفة كبحث علمي ، مثلما يرفضها كمركز للعلوم ، او كأم للعلوم فكل ما في الوجود سيتحول الى أجزاء من البحث العلمي .

---

(١) انتي دوهرنغ : انجلز ٣٢ ت : د فؤاد ايوب دار دمشق .

(٢) المرجع السابق ص ٤٨ . راجع فيورباخ لانجلز ص ٨٥ و٨٦ و١٠٢ .

ان ذكر هذا النص يغنينا عن التعرض لنص اخر لانجلز يطلب فيه الفلسفة كام للعلوم . يرى انجلز ان العلوم قدمت كمية هائلة من المعرفة (( حتى الحت الحاجة على ضرورة تصنيفها في كل حقل مستقل من حقول البحث منهجيا وطبقا لترابطها المتبادل والداخلي . وقد أصبح ملحا ايضا ادخال المجالات المستقلة للمعرفة في الروابط الصحيحة الواحدة مع الاخرى وفي تنفيذ ذلك تدخل العلوم الطبيعية الحقل النظري والطرق التجريبية لن تجدي هنا . لن يفيدنا هنا سوى التفكير النظري . الا ان التفكير النظري صفة فطرية تتعلق بالقدرة الطبيعية فقط . هذه القدرة الطبيعية يجب تطويرها وتحسينها ، ولاجل تحسينها لا توجد اية وسيلة حتى الان الا دراسة الفلسفة السابقة )) ( جدليات الطبيعة انجلز ص ٦١ : محمد اسامة

ثم انه يرى ان ما سيبقى من الفلسفة هو المنطق الصوري والجدلي . وهنا علينا ان نناقش الامر . اذ من المعلوم ان المنهج لا ينفصل عن موضوعه عند هيجل . فديالكتيك الفكر هو نفسه ديالكتيك الوجود ، هو حركة الوجود . بل هو الوجود نفسه متعاليا في الفكر . كما أنه من المعلوم أن مناهج العلوم لا تقرر بشكل مسبق كمنهج فلسفي الا عندما يكون النهج غير مطبق فعليا ، وانما يعين العالم منهجه خلال البحث وبحسب مساره ، ولذا تفرعت المناهج وتنوعت ، فهل يمكن أن نفرض على العالم نهجا محددا ، لنطالبه باتباعه ؟ لقد اتقن انجلز الدفاع عن ماركس عندما رفض ان يكون ماركس قد اقحم المنهج الجدلي اقحاما في بحثه ، فما دلالة بقاء منهج ما متعاليا على موضوعه ومستقلا عنه ؟!

لعل الفاصل الزمني بيننا وبين انجلز هذا الذي يجعلنا نحسم الامر الذي عالجه بحذر ، مؤكدين ان كل علم سيعرض موضوعه ومنهجه بآن واحد ، كما نرى الان تماما ، ولذا ، فليس من مهمات الفلسفة أن تختص بدراسة المناهج او تحديد قوانين الفكر ، وبذلك ينحل المنطق الصوري الى علم النفس كما ينحل الجدل الى العلوم التي تستخدمه .

ان نص ماركس عن طريقته المعاكسة لطريقة هيجل تماما ، نص جذري وقطعي ، منعا لاي التباس أو اي نقد ( كنقد دوهرنغ ) ليس

---

**القوتلي . دمشق ) .**

**ولذا انشا كتابه جدليات الطبيعة ، اي ليحقق الفلسفة كتصنيف للعلوم (( ان الطبيعة العامة للجدليات ، يجب أن تطور على اعتبارها علم الترابط المتبادل بالمقابل مع الماورائية )) ( المرجع السابق ص ٨٦ ) .**

**ان مشروع انجلز يلغي الحد الفاصل بين الفلسفة والعلم ، وحسبنا ما نقلناه عنه في انتي دوهرنغ في اعلاه ، ضد هذا الاتجاه . ولا ننسى ما ذكره عن انتي دوهرنغ والذي يصدق على جدليات الطبيعة ايضا . كتب انجلز (( ومع ذلك فلعل التقدم في العلوم الطبيعية النظرية يصير مؤلفي نافلا حتى درجة بعيدة ، وبصورة كلية تماما )) ( انتي دوهرنغ ص ١٤ ) .**

**ما نريد التاكيد عليه ان الفلسفة فضولية على العلم ان قالت في نتاجه اية كلمة ، تن فلنبحث عن موضوعها خارج هذا العمل .**

الفكر هو الذي يفرض على الواقع صوره ، بل ان الواقع ينعكس في الدماغ . لذا فيمكن القول بشكل مؤكد ان حركة الفكر ليست الا ارجاعا لحركة الواقع لا العكس . الاساس هو حركة الواقع لا ما ينشئه الدماغ من جدل ، ولذا يتنوع هذا الجدل بحسب تنوع حركة الواقع وجدله ، وهو ما يكتشفه العالم في الوجود ، لا ما يحدده الفيلسوف . ان جذرية عمل ماركس تتبدى في تطبيقه لهذا النص على دراسة الواقع ، فبدلا من ان يدرس حركة الفكر كما فعل هيجل ، درس الوجود الاجتماعي وحركته ، جدلياته . فكان راس المال . وعندما يلمح ان فهم الجدل تشوه ، اذ اتخذ اداة لتبرير الواقع وتمجيدا للاشياء القائمة ، اعطاه الوصف الحقيقي ، فهو جدل صوفي ، هيجلي (١)**لانه يسقط على الواقع ما هو في الفكر من دون اعتبار لحركة الواقع .**

القضية الاخيرة التي يثيرها انجلز ، هي ان موضوعات الفلسفة قد ذابت في علمي الطبيعة والتاريخ . وهي قضية تعارض راس المال وهو ما يجعلنا نحدد وضع انجلز بالنسبة لهذا الكتاب عامة ، خاصة عندما نستعرض طموحه عبر كتابيه ضد دوهرنغ والجدليات ، اذ لا يزال الصق بمادية فيورباخ . ولم يستطع التوصل الى ذلك الافق الذي استشفه راس المال . ان اساس هذا الذوبان عنده يرتدالى اعتقاده الجذري التبسيطي لقضية القلب ، بذلك تذوب الفكرة المطلقة في الوجود ، وتنتهي موضوعات الفلسفة لتصبح جزءا من التحليل العلمي ، وهو ما يناقض افكار ماركس في راس المال . وسوف يسود الى حين هذا الراي التبسيطي والساذج في الماركسية !.

ما ينقد كل هذا هو خاتمة نص ماركس عن طريقته عندما يكتب : « ان الديالكتيك هو اساسا نقد وثورة » (٢) فهل يعني ماركس مجرد حركة الواقع لينفي ذاته ؟ ان كتابا باكمله يحلل العمل ، ويستعرض الانسان بما هو فعالية حرة ، انما يستعرض وجها اخرا من الديالكتيك

---

(١) مقدمة الطبعة الالمانية الثانية : راس المال ك١ ج١ ص ٣٨ .

(٢) راس المال ك١ ج١ المقدمة الثانية ص ٣٨ .

لم يستوعبه صاحب جدليات الطبيعـــة ، ونعني جدل الفعالية الحرة مع الوجود ، والذي سوف يحدده لينين عبر مقولتي الوعي والتنظيم. وانما بهذا النوع من الجدل يكون الديالكتيك نقديا وثوريا . ولا يمكن أن يكون الديالكتيك نقديا وثوريا اذا ذابت موضوعات الفلسفة في علمي الطبيعة والتاريخ ، لان نتيجة مثل هذا الذوبان ، هو الغاء دور الانسان الفاعل والفعال ، ليصبح مجرد أداة تعكس الوجود والعلاقات بالدراسة العلمية . والوجود حيادي القيمة والغايـــة ولذا لا يشير الى نقد ما ولا يشير الى غاية ما ، وبالتالي فان الدراسة العلمية تقدم لوحة عما هو موجود ولا تشير الى قيمة ما ، وانـــما تضاف هذه القيمة ، والغاية ، والنقد من قبل الفيلسوف بحسب موقعه الطبقي وعلى هذا النحو يكون الجدل ، جدل الانسان مـــع الوجود ، نقديا وثوريا ، او تبريريا لما هو قائم .

ان حديث انجلز عودة الى التحديدات الارسطية والغاء للحدود التي تفصل بين العلم والفلسفة ، وبذلك تصبح الفلسفة علما والعلم فلسفة ، لكن أليس هذا هو ما حاول هيجل تأكيده عبر رحلة الفكرة المطلقة ؟! وسيان بعد ذلك ان اطلقنا على القول اســـم الفلسفـــة او اسم العلم !

## غاية الامـــر :

العلم الماركسي في راس المال دراسة للواقع الانساني ، وفيـــه عمل الانسان والارض حجري الاساس، وجدلهما صانع حركة الواقع . اما الفلسفة التي يشير اليها فهي فلسفة العمل الغائـــي ، بما أن الانسان ذو فعالية حرة ، هادفة ، واعية ، تخطط بشكل مسبـــق قبل ان تنفذ . وبذلك تتحدد الحدود بين العلم والفلسفة ، اذ ان العلم دراسة لجدليات الواقع على حين ان الفلسفة تخطيط وتشريـــــع لغايات . من هنا يصبح كل قول فلسفي عن الوجود لا جدوى منه، كما انه يصبح كل قول علمي ناقصا ينتظر الفيلسوف ليكمله ، وهو ما سوف يوضحه لنا لينين الايضاح الكامل بعد أن تركه ماركس على شكل اشارات .

## جدل الانسان ـ الوجود :

بدات الماركسية كثورة ضد المثالية ، تعكس فيها القول المثالي، وعلى وجه الدقة القول الهيجلي . وقضية العكس كما لاحظنا تولد عدة التباسات ، تحتاج الى مزيد من النظر .

الروح المطلقة ، او الفكرة المطلقة عند هيجل هي كل شيء في محاولته لتعقيل الاله المسيحي بجبرية مطلقة لا تترك امرا خارجها. فكيف يكون العكس ؟ كتب انجلز :

« .. اولئك الذين اكدوا اولية الروح على الطبيعة .. اولئك الفلاسفة يؤلفون معسكر المثالية . اما الفلاسفة الآخرون الذين اعتبروا الطبيعة بمثابة العنصر الاول فينتمون الى مختلف مدارس المادية » (١)

وقد تساءلنا هل تعتبر الطبيعة او المادة حاملة لكل عناصر الفكرة المطلقة ، ما دامت قد اصبحت هي الاولى ؟ لنشر الى أن عملية العكس ليست عملية عكس بالمعنى الحرفي ، اذ أن هنالك الغاء للروح المطلقة أولا ، وهي تستبدل بروح الانسان ثانيا ، وهذه الروح الاخيرة يتبدل معناها ، فما هي الا نتاج الوظيفة الدماغية ، اي الافكار ، ثم ان العكس يصبح عكسا معرفيا ، فكاننا دخلنا نظرية المعرفة ، بعد أن كان الحديث بحثا في الانطولوجيا .

الروح أو الفكرة المطلقة هي الله ، والروح ذات غير مرئية في الانسان عند المثالية ، والماركسية خلال عملية العكس تستخدم هذه الالفاظ ، فهل يرد المعنى نفسه ؟ « ان ازالة ثنائية الروح والجسد من قبل المادية ـ يعني الاحادية المادية ـ تقوم في انه لما كانت الروح لا تملك وجودا مستقلا عن الجسد فهي عامل ثانوي ووظيفة للدماغ وصورة العالم الخارجي (٢) .

وبالتالي تصبح الروح مرادفة للصور أو الافكار حينا ، وتصبح مرادفة للوظيفة حينا اخرا . وبذلك تنتقل الاولوية الوجودية لتصبح اولية معرفية « لنشر قبل كل شيء الى ان المادية لا تنكر ابدا وجود

---

(١) فيورباخ : انجلز ص ٤٩

(٢) المادية والمذهب التجريبي ص ٨٠

الروح . فالفكر موجود والمادة موجودة . ولا يتعلق الامر برد الفكر الى المادة بل بالبرهنة على ان المادة هي الواقع الاول وان الروح هي المعطى الثاني » (١) .

اذن ان قضية العكس ليست بتلك البساطة التي تتقدم بها . بل هي تبدل جذري في الطرح والفهم وفي النقل ، المادة لها الاولوية، والانسان يعكس الطبيعة بوساطة حواسه ، كرد حاسم على نظرية المعرفة المثالية ، يكمله ادراك الجدل بين الذات والموضوع ، فاذا كانت المثالية ترى ان لا موضوع دون ادراك ، فالرد هو ان لا ادراك من دون موضوع . وما يتكون نتيجة لهذا الادراك ليس ذواتا خفية تسمى النفس أو الروح أو الفكر بل تتكون الصور والافكار ، ولذا فان البحث هنا يرتد ليكون بحثا علميا يحلل عنصري المعرفة في الوجود ، على حين ان الفلسفة لا يمكن لها ان تقدم لعلم النفس اي امر له قيمة .

مع ذلك ، تبقى في قضية العكس الاسئلة نفسها ، اذ يفترض تلقائيا ، ما دامت المادة قد اصبحت اولية — على المستوى الانطولوجي — ان تمتلك خصائص الفكرة المطلقة . ان تمتلك فعاليتها، قدرتها الخلاقة المطلقة ، والتي تتحدد بالوعي وبالغائية وبالحركة المتطورة ، فهل نسب الى المادة مثل هذا ؟

« .. اذا ما اثيرت مسألة ماهية الفكر والوعي على وجه الدقة وطبيعة مصدرها ، فانه يتضح انهما منتجان للدماغ الانساني . وان الانسان نفسه نتاج للطبيعة ، وقد تطور ضمن محيطه وبصورة متدرجة معه ، وبالتالي فانه من البديهي أن منتجات الدماغ الانساني وهي في اخر تحليل منتجات للطبيعة لا تناقض بقية ترابطات الطبيعة بل هي متوافقة معها » (٢) .

المادة لها الاولوية ، وستحمل كل خصائص الفكرة المطلقة . بذلك فالطبيعة والاقتصاد والانتاج هو الاول ، وبذلك تستعاد جبرية هيجل الدينية لتصبح جبرية مادية ، لكنها جبرية في كلتا الحالتين .

---

(١) النظرية المادية في المعرفة : غارودي ص ٣٠
(٢) انتي دوهرنغ : انجلز ص ٤٧ .

هذا ما نص عليه انجلز بصورة دائمة ( الا فيما ندر ) ومــــاركس قبل راس المال بصورة جزئية .

كيف يحدث التبدل في المجتمع ؟ مـــا عناصر الجدل ؟ كان الجواب ان الوجود حركة ، ونتيجة لهذه الحركة يكون الانسان والمجتمع والافكار ، وكجزء من الجواب : ان الانتاج هو السبب الحاســـم في التطور . فهو خالق الانسان وخالق افكاره : دينا وحقوقنا وفلسفة واخلاقنا .

**كتـــب مـــاركس :**

**« ترتبط العلاقات الاجتماعية وتتعلق بالقوى الانتاجية . ولدى تحقيقنا لقوى انتاجية جديدة يغير الناس نوع الانتاج وعند تغييرهم لنوع انتاجهم وعند تغيير طريقة كسبهم لمعيشتهم فانهم يغيرون كل العلاقات الاجتماعية . ان الطاحونة التي تدار باليد تمثل لكمجتمعا يتحكم به السيد الاقطاعي ، وتمثل الطاحونة البخارية مجتمعاتتحكم فيه الصناعة الرأسمالية . ان نفس الناس الذين يؤسسونعلاقاتهم الاجتماعية لتطابق انتاجهم المادي ، تراهم ينتجون أيضا المبادىء والافكار واللوائح لكي تطابق علاقاتهم الاجتماعية . وهكذا فانهذه الافكار وهذه اللوائح ليست ابدية كالعلاقات التي تعبر عنها . انها انتاج تاريخي وفترة انتقال » (١) .**

وكتـــب ايضـــا :

« ان تقسيم العمل خلق المذاهب » (٢) .

« وان ادخال الالة سبب تقسيم العمل ضمن المجتمع .. وسبب ايضا تقسيم الناس » (٣) .

« ليس وعي الناس الذي يحدد وجودهم ، ولكن وجودهـــم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم » (٤) .

---

(١) بؤس الفلسفة ص ١٢ و ١٣

(٢) بؤس الفلسفة ص ١٢٥

(٣) بؤس الفلسفة ص ١٤٥

(٤) نقد الاقتصاد السياسي ص ٧ ( المقدمة ١٨٥٩ ) . ت: د. راشد براوي . مصر ١٩٦٩ — دار النهضة .

ويقول ايضا هذا القول المتناقض :

« من السخافة أن نقول ان الناس ليسوا احرارا ان يختاروا قواهم الانتاجية التي هي اساس كل تاريخهم ــ لان كل قوة انتاجية هي قوة مطلوبة وهي نتاج نشاط سابق ــ ان القوى الانتاجية هي نتيجة النشاط الانساني الواقعي ، لكن هذا النشاط يتعلقبالاحوال التي يجد فيها الناس انفسهم مرتبطين بالقوى الانتاجية التياحرزوها وبالتشكيل الاجتماعي الموجود الذي لا يخلقونه والذي هو نتاج الاجيال السابقة .وبسبب هذا الواقع البسيط نجد انكل جيل آت سيرى نفسه مالكا للقوى الانتاجية التي حققتها الاجيال السابقة والتي تخدمه كمواد اولية لانتاج جديد ولذلك يوجد ارتباط في تاريخ البشر تاريخ الانسانية الذي يأخذ شكل العلاقات الاجتماعية .ويتبع هذا ان تاريخ الناس الاجتماعي ليس الا تطور الفرد . وعلاقات الناس المادية هي **اساس** كل علاقاتهم وهذه العلاقات المادية هي الاشكال الضرورية التي يتحقق فيها النشاط الفردي » (١) ٠

**وذكر أنجلز بعد رأس المال :**

« ان المفهوم المادي للتاريخ ينطلق من الموضوعة القائلة ان الانتاج انتاج وسائل دعم الحياة الانسانية ومن بعد الانتاج مبادلة الاشياء المنتجة هو اساس كل البنية الاجتماعية . وان الطريقة التي يتم بها توزيع الثروة وانقسام المجتمع الى طبقات أو فئات ترتبط في كل مجتمع ظهر في التاريخ بالاشياء المنتجة وكيفية انتاجها وكيفية مبادلة المنتجات . ومن وجهة النظر هذه فانه ينبغي البحثعن الاسباب الاخيرة لسائر التبدلات الاجتماعية والثورات السياسية ليس فيادمغة البشر، ليس فيفهمهم النامي للحقيقةوالعدالة الابديتين. بل في التبدلات الطارئة على اساليب الانتاج والمبادلة . انه ينبغي البحث عن هذه الاسباب ليس في الفلسفة بل في اقتصاديات كل فترة تاريخية معينة ٠٠ » (٢) ٠

---

(١) رسالة الى انينكوف سنة ١٨٤٦ : بؤس الفلسفة ص ١٨٤

(٢) انتي دوهرنغ ص ٣٢١ سنة ١٨٨٥

وذكر ايضا :

« .. وبالمقابل نجد ان العوامل المؤثرة في تاريخ المجتمع الانساني هي فقط اناس يتحلون بالشعور يعملون على أساس التفكير أو الهوى ويسعون الى اهداف معينة فلا يحصل شيء من غير هدف واع وغاية مقصودة . لكن هذا الاختلاف مهما تكن اهميته بالنسبة الى الاستقصاء التاريخي وخاصة في عصور واحداث معينة — لا يمكن ان يغير شيئا من الحقيقة التالية الا وهي ان مجرى التاريخ يخضع لحكم قوانين عامة داخلية . ذلك اننا نجد هنا ان المصادفة تسود بصورة عامة على السطح حسبما تشير الظواهر رغم الاهداف التي يسعى اليها الافراد على انفراد عن وعي وشعور .. ولكن حينما تلوح المصادفة سائدة على السطح فالحق انها تخضع على الدوام لحكم قوانين داخلية وما المشكلة سوى اكتشاف هذه القوانين . » (١) .

والقوانين هي الصراع بين الطبقات أولا ، وهذه بدورها مردودة الى اسباب اقتصادية :

ان « .. نضال هذه الطبقات الثلاث الكبرى ، وفي النزاع بين مصالحها تكمن القوى المحركة للتاريخ الحديث . في هذين البلدين الاكثر تقدما على الاقل » .

« ان نشأة هاتين الطبقتين ونموهما ناجمة عن اسباب اقتصادية صرفة ... لقد تشكلت كل من طبقتي البورجوازية والبروليتاريا اثر تحول في الشروط الاقتصادية ، وبعبارة أدق اثر تحول في اسلوب الانتاج .. وعلى هذا فالدولة — اي النظام السياسي — تشكل هنا على الاقل العنصر الثانوي فيما المجتمع المدني اي عالم الصلات الاقتصادية يؤلف العنصر الحاسم » (٢) .

وفي «البيان» المشترك ذكر انجلز وماركس مخاطبين البورجوازي: « فأفكاركم نفسها هي نتاج علاقات الانتاج والملكية البرجوازية

---

(١) (٢) لودفيج فيورباخ ص ٨٦ — ٩٧

مثلما ان قانونكم ليس سوى ارادة طبقتكم وقد نصبت قانونا ، هذه الارادة التي اعطتها الشروط المادية لحياة طبقتكم مضمونها » .(١) .

فهنا نجد تأكيدات حاسمة على أن ظروف الحياة الاقتصادية وان اسلوب الانتاج هو المحرك الاساسي في التاريخ . وان القيم والاهداف تتبع لهذا الاسلوب ، فهو يفترضها وينتجها . فهنا الاستلاب مطلق وعام . لان الانسان بحريته وبقيمه وبأهدافه انما هو عبد مطلق لاسلوب الانتاج ، حتى الراسمالي ، فمصالح طبقته تحددها الظروف المادية .

لنقارن هذا براس المال ، الا نجد اختلافا ؟ الا نجد أن ماركس قد تطور بوضعه العمل الذي تسبقه الافكار بجانب المادة كمحرك وكصانع للاقتصاد ؟ الا نجد أن ماركس يرفض الاستلاب ، وينص على حرية الانسان ، فاهما الاستلاب على انه حالة شاذة افترضها اسلوب الانتاج الراسمالي ، لا حالة مطلقة ؟ والا فلماذا الثورة ؟ ما دام الاستلاب سيستمر ! وما دام الانسان سيبقى عبدا للانتاج ! ان الثورة الغاء للاستلاب ، الغاء لتبعية الانسان لاساليب الانتاج .

لقد عمق ماركس اراءه ليصل الى وضع تأثير اسلوب الانتاج الحاسم والخالق في موضعه الصحيح كحالة استلاب .

اذن ان الفلسفة الماركسية السابقة على راس المال تحمل الوجود خصائص الفكرة المطلقة ، ثم جاء راس المال ليعدل هذا الوضع الخاطيء في المادية الساذجة ، وليعتبرها حالة شاذة ، وليعتبر الوضع الحقيقي والصحيح هو الوضع الذي يجادل فيه الانسان ذو الفعالية الحرة والغائية الوجود ذا القوانين الحتمية الحيادية لا ذا القوانين الجبرية الغائية الخلاقة . وبذلك فان الوجود لا يحمل خصائص الفكرة المطلقة ، ما دامت قوانينه لا تحمل غايات ولا تحمل قيما تفرضها على البشر ، وانما الانسان يضع في الوجود قيمه وقوانينه .

ليس معنى ذلك ان الكتابات الماركسية بكاملها قبل راس المال

---

(١) البيان الشيوعي ص ١٠٢ ترجمة العفيف الاخضر ـ دار ابن خلدون

قد نحت نحو هذا الفهم المؤله للانتاج . وكأني بماركس ( بل وانجلز ايضا ) يحاولان ان يكتشفا طريقهما لبناء فلسفة جديدة ، ولذا نرى اراء مغايرة تناقض القول السابق ، وتفتح الطريق نحو الفلسفة المناسبة لراس المال . وليس هناك نقد أفضل لذاك الراي الحاسم والنهائي **الا ما كتبه ماركس وانجلز :**

**« ان المذهب المادي القائل ان البشر نتاج الظروف والتربية وان البشر المتغيرين هم بالتالي نتاج ظروف اخرى وتربية متغيرة ، ينسى ان البشر هم الذين يغيرون الظروف وان من الامور الاساسية تربية المربي نفسه » (١) .**

**وكتب انجلــز :**

« وصفوة القول ان الحيوان يستخدم بيئته فقط ويحدث تغييرات فيها لمجرد وجوده في حين أن الانسان عن طريق تغييراته يجعلها تخدم **اغراضه** . يسخرها . هذا هو الفارق الجوهري والنهائي بين الانسان والحيوانات الاخرى . ومرة اخرى فالجهد **(العمل)** هو الذي يحدث هذا الفارق » (٢) .

وذكــر ايضا :

« العلوم الطبيعية مثلها كمثل الفلسفة اهملت حتى الان تأثير فعالية الناس في فكرهم اهمالا كليا ، كلاهما لا يعرف سوى الطبيعة من ناحية والفكر من الناحية الاخرى . بيد ان تغيير الطبيعة من قبل الناس وليس الطبيعة بحد ذاتها فقط هو بالتحديد أساس الفكر البشري الاكثر جوهرية ومباشرة » (٣) .

وذكر ايضا :

« .. ان الطبيعة تؤثر في الانسان تأثيرا مطلقا وان الشروط الطبيعية في كل مكان عينت تطوره التاريخي تعيينا مطلقا هو مفهوم وحيد الجانب بسبب هذا ، وهو ينسى ( درابير وسواه ) ان الانسان

---

**(١) فروض (اطروحات) عن فيورباخ : الفرض الثالث في فيورباخ ص ١٠٧**

**(٢) جدليات الطبيعة ص ٢٤٩**

**(٣) جدليات الطبيعة ص ٢٢٤**

يمارس اثره في الطبيعة مغيرا اياها وصانعا شروط وجود جديدة لنفسه » (١) .

كما ذكرت ، ليس هناك نقد افضل للمادية الساذجة من هذا النقد ، لانه يستعيد الوضع الصحيح ، ويصحح عملية العكس ويعمق مضمونها . لا المادة وحدها تحرك التاريخ كما رات المادية السابقة ، ولا الافكار وحدها رافعة لذاك التطور ، بل جدل الطرفين عبر العمل ، وهو ما يحلله راس المال تحليلا علميا .

لقد نظر بصورة دائمة نظرة الشك الى التمييز بين ماركس الشاب وماركس راس المال ، والى التمييز بين ماركس وانجلز . ذلك ان من اهداف هذا التمييز حينا ما هو شق الماركسية ونقدها . بيد اننا نرى ان هذا التمييز عملية ايجابية واساسية لادراك الجدل الماركسي . اذ لا يمكن ان نتصور عدم تطور افكار انسان ، كما لا يمكن أن نتصور تطابق شخصين . ان كشف الفروق محاولة لفهم هذا التناقض ، ومحاولة لحل هذا التناقض وفقا لاخر انتاج ماركس ، وهو راس المال ، ومحاولة لتعدي تلك الدوغمائية المتناقضة التي اساءت الى الماركسية ، بتاليه الانتاج ، من دون ان تلتفت الى الاقوال المعارضة ومن دون ان تستوعب راس المال . **انجعل الفلسفة الماركسية خاضعة لمقدمة ١٨٥٩ أم يجب أن نجعلها مناسبة لرأس المال ؟**

**كتب ماركس :**

« ان الصراع بين البروليتاريا والبورجوازية هو صراع طبقة ضد طبقة ، صراع يؤدي الى ثورة عامة ! ليس مدهشا ان مجتمعا قائما على صراع الطبقات يجب أن يؤدي الى تناقض وحشي ، الى اصطدام جسد بجسد كنتيجة محتومة له . لا توجد حركة سياسية الا وهي حركة اجتماعية » . (الصراع او الموت . الاصطدام الدموي او العدم هكذا يجب ان نضع المسألة : جورج ساند ) (٢) .

---

(١) جدليات الطبيعة ص ٣٢٤

(٢) بؤس الفلسفة ص ١٨٠.

**وكتب ماركس وانجلز :**

« ان العامل يخلق حتى الانسان . » (١)

وذكر انجلـــز :

« يؤكد علماء الاقتصاد السياسي ان الجهد مصدر للثروة جميعا . وانه بعد الطبيعة التي تؤمن له المادة التي يحولها الى ثروة هـــو حقا المصدر . لكنه وبصورة مطلقة ايضا اكثر من ذلك . انه الشرط الاساسي الاولي للوجود البشري جميعه . وهذا باعتماد تفســير اخر يحملنا الى حد القول ان الجهد خلق الانسان نفسه » (٢) .

**وكتب ماركس وانجلز :**

« التاريخ ليس شخصا منفصلا . يستخدم الانسان كوسيلة لاهدافه الخاصة . **التاريخ ليس سوى فعالية الانسان الـــذي يلاحق اهدافه** » (٣) .

**وذكر انجلز :**

**« لكن الناس كلما ازدادوا بعدا عن الحيوانات اتخذت اثارهــم في الطبيعة صفة الفعل المتعمد المخطط له الموجه نحو غايات محددة سابقة التصور » (٤) .**

ورد على فيورباخ الذي رد مراحل الانسانية الى تغيرات النظام الديني فذكـــر :

« ذلك ان الانعطافات التاريخية الكبرى لم تكن مصحوبة بتغيرات في النظام الديني الا بمقدار ما يتعلق الامر بالاديان الثلاثة الكبرى : البوذية والمسيحية والاسلام » (٥) . **ويكفينا هذا الاقرار باثر الاديان** الكبرى . مقابل ذلك التأكيد المناقض له : « ان ما تبجح بـــه حتى

---

(١) العائلة المقدسة ص ١٨ ماركس وانجلز سنة ١٨٤٤ ترجمة حنا عبود دمشق

(٢) جدليات الطبيعةص ٢٣٦

(٣) العائلة المقدسة ص ١١٨

(٤) جدليات الطبيعة ص ٢٤٧

(٥) لودفيج فيورباخ ص ٦٧

اليوم يدين بــه الانتاج للعلم ، لكن العلم مدين بلا حدود للانتاج بما هو أكثر . » (١)

### غاية الامــر :

ان العكس لهيجل يطرح اشكالية كبيرة في الفكر الماركسي ، ما مصير الروح المطلقة وهل ذابت في الوجود ؟ بتاثير من المادية اقــر بأن الانتاج هو محرك التاريخ ، بيد ان هذا الاقرار لم يكن وحيدا، لذا نجد جوابا اخرا تستعاد معه اطروحة العمل الهيجلية لتتخــذ سمتا واقعيا ، فالانسان يمتاز عن الحيوان بالعمل وهذا العــمل غائي ، يهدف لتحقيق هدف محدد بشكل مسبق في دماغه ، فالعمل مسبوق بالافكار ، وهو صنو للوجود ، يجادل الموجود ، وبحسب هذا الجدل يكون التاريخ .

سار الاتجاهان في الكتابات الماركسية ، وبتأثير مــن انجلــز وكاوتسكي ثم ستالين ، ونتيجة للتبسيط ، والقولبــة ، اعتبــرت الماركسية هي الاقرار الاول . بيد أن الجواب الاخر سينمو وسيكون موضوع رأس المال الوحيد ، فاذن يمكننا ان نجزم بالاعتماد على اخر نتاج ماركس ان الماركسية لم تذب الفكرة المطلقة في الوجود ، وان القلب ليس حرفيا ، بل ان الماركسية انشأت جدلا جديدا ، جــدل العمل الغائي مع الوجود ، وهو الجدل النقدي والثوري ، الصانع للتاريــخ .

---

### أفق الماركسية :

ماذا نفهم من كل هذا ؟

نفهم أن الماركسيةمشروعلم يكتمل ونفهم اكثر منهذا ،وهو وجوب اكمال المشروع بما يتفق مع علم ماركس في رأس المال . أعنيانشاء « فلسفة العمل » الصادرة عن « علم العمل » كبديل عن الماديــة الساذجة .

وكمنطلق لا بد من تحقيق نقدين أساسيين ، الاول يشير الــى تناقض المادية مع علم العمل ، والثاني يشير الى تناقض الماركسية

---

(١) المصدر السابق لودفيج فيورباخ .

المكتملة الان مع الجدل . اعني«الماركسية» التي تظن ان الماركسية يمكن أن تكون فلسفة بصورة مطلقة ، ذلك أن الجدل يشير بشكل حاسم الى أن الفلسفة مشروع نسبي ما أن يكتمل حتى يعود ليكون ناقصا . وبمعنى اخر ان الفلسفة في تكوين مستمر ، بحسب تبدلات الواقع وبحسب تبدلات الاهداف ، فلا حقائق ثابتة ولا اهداف مؤقتة ، وانما بحث علمي مستمر ، وتجاوز فلسفي للاهداف متتابع .

ان عملية « الاكمال » التي حدثت سهلة ، اذ ضم كل ما قيل الى بعضه بعضا ، فأصبح بين أيدينا مذهب متكامل . وادى انجلز بقصوره عن ماركس دوره ، ناسخا خطوات ماركس المتقدمة الى الامام ، بالنكوص خطوات الى الوراء باتجاه فيورباخ وهيجل .

لقد سقطت «الماركسية» قبل راس المال ، وعلى يد انجلز واتباعه بعد راس المال في شرك المثالية ، حاسبة ان القضية تحل باولوية المادة . ان الهدف الاول للمثالية هو انكار فعالية الانسان في صنع حياته ، وافهامه انه خاضع لقدر لا يستطيع التخلص منه ، لذا فعليه ان يطأطىء راسه راضيا بوضعه البائس ، من دون ان يفكر بالتبديل والثورة ، لان التبديل ليس من شأنه بل من شأن ذاك القدر .

هذا هو جوهر المثالية ، انه تبرير الوضع القائم كوضع جبري لا فكاك منه . لذا كرهت التبديل دائما ، ولذا شكت وحاربت كل فكرة جديدة على اساس أن قوانينها اظهرت الحقيقة الباطنة الكاملة ، وان ما يحدث من تبدلات انما هو سطحي وعقيم .

والمثالية تدعي الاتصال بذاك القدر المتعالي ، لكنها فعليا وعمليا تقرأ الوجود وحده . ومنه تستخلص قوانينها الجبرية . بذلك فتعاليها كاذب وانما هي مادية ثابتة ، لان كل ما يتبقى من احالتها الى القدر المتعالي هو الوجود على ما هو عليه كحقيقة مطلقة يسير على نحو جبري من دون أن يقدر الانسان الثورة عليه .

وعندما حصرت هذه «الماركسية» نفسها في السؤال المغلوط عن الاولوية انزلقت الى الشرك نفسه ، جاعلة المادة قدر الانسان ؛

ملحقة عليها وعيه واهدافه . لكن ان كانت المادة اولوية في المعرفة فهي ليست اساس كل تحول ولا مصدر اية قيمة .

ان الطبيعة تجادل الانسان فتتكون الافكار العلمية ، ويضع الانسان القيم والاهداف بما يتناسب مع هذه الافكار . ثم تتجادل القيم والاهداف مع المادة بالعمل . فيتعدل الواقع ، وتتعدل القيم وتنشأ قيم جديدة وهكذا يكون التطور .

ان المادة ، واسلوب الانتاج متعادلا القيمة في مساره وفي جدله وهو لا يقول لنا اريد طبقة تتمتع بالحياة حتى التخمة ، واريد طبقة تكدح حتى الموت . وانما يقول هذا الراسمالي في جشعه ، وهو يضع قيمه الانانية واهدافه الخاصة موضع التنفيذ . واسلوب الانتاج لا يقول للكادحين ثوروا ولا يصنع ثورتهم ، وانما يصنعذلك الكادحون وهم يدركون ويعون وضعهم، فينظمون انفسهم ويثورون ضد وضع يدركون انه ليس مطلقا ولا هو بالجبري .

ان الاكتفاء بجدل الوجود هو ميزة المثالية قولا . اما في الفعل فهم ابعد الناس عن هذه الجبرية ، لانهم يضعون اهدافهم وعقيدتهم موضع الفعل وموضع القسر . وما هذه الاهداف والعقائد الا المصالح الذاتية وقد غدت فلسفة مطلقة .

عندما نكتفي بجدل الوجود ، علينا ان ننتظر رحمته ، حتى يطور الانتاج الى اللحظة الحاسمة ، ولكن عند ذلك لن يصنع لنا ثورتنا ، بل سيصنع لنا مقبرتنا وقد طحنتنا اهداف المستغلين . ما يصنع ثورة الكادحين ، هو وعيهم لظروف حياتهم ، وعيهم لاستلابهم ، وتنظيم انفسهم بحسب اهداف وقيم صحيحة .

من هنا يجب ان نرد ذلك الراي الذي يحيل التطور الى الانتاج لانه راي مثالي ، يرمينا تحت اقدام قدر وهمي موجود في المادة . والمادة متعادلة القيمة وحيادية في مسارها .
وعندما نرد هذه «الماركسية» الشائعةالتيحاولت تنسيقالكتابات الماركسية حول محور المادية لا نعني تعديل الماركسية ولا رفدها بينابيع جديدة ، ولا نعني تطويرها . انما نعني شيئا واحدا ، هو محورة الماركسية بحسب محور اخر موجود فيها في الكتاباتالاولى

وفي راس المال . انما نعني ان الوضع الطبيعي أن الاساس هو آخر تطورات ماركس وهو العلم ، وما يوافقه في الكتابات الاولى وليس اساسا ان نطوع آخر الانتاج للبدايات الفجة التي ظهرت نتيجة لتأثيرات فيورباخ وهيجل .

الامر بشكل محدد ما هو الاساس ؟ المادة في جدلها . ام جدل الانسان مع المادة ؟

والامر بشكل محدد هو رد الراي الاول لانه يلغي فعاليةالانسان واهدافه . وليس حلا بأن نغازل المثالية بالحديث عن الوعيوالارادة على السطح ، على حين تكون تأكيداتنا لا تزال مستمرة عن الانتاج كعامل أول وحاسم . ان كلمات ماركس ليست مجازيه ، انالتطور يرتد الى عاملين متساويين هما العمل وما يسبقه من افكار والمادة. فالعمل ليس تابعا ولا ملحقا ، **انه الند .**

**من هنا نجد ان طرح السؤال عن أيهما الاول : المادة أم الافكار هو طرح خاطىء يوصل الى تصنيف تبسيطي يلغي الاهم وهو جدل الافكار مع المادة بالمعرفة وبالعمل . والماركسي ليس خاضعا لاجابة مزيفة تحدد المادة كأقنوم وحيد ، بل هو الذي يدرك الجدل بالدرجة الاولى . يدرك جدل الوجود أولا فينشأ العلم ، ويدركجدل الاهداف الانسانية بالوجود عن طريق العمل فتنشأ الفلسفة ، وتتحدد كعلم للاهداف وكفعل للتجاوز كما شاء ماركس .**

تنتج الافكار من جدل دماغ الانسان مع الوجود وهو يقراه . والافكار حيادية مثل الوجود الذي تقراه . وما يجعلها ذات اتجاه هو وضع قيم الانسان فيها ، بذلك تكون افكارا هادفة غيرحيادية . وعندما تنزل الى الوجود تتحول الى عمل ينظم الوجود . وتبدله لصالح الانسان عامة او لصالح طبقة محددة . الحيوان وحده يعمل من دون افكار ومن دون غايات ومن دون قيم . وما الاهدافوالقيم الا الاديان والفلسفات والمذاهب الاخلاقية والحقوقية . وهي عندما تنزل الى معترك الحياة لا تبدل هذه الحياة فحسب ، بل وتتبدل هي ايضا . فالوجود وان كان حياديا لا يتقبل اي قيمة واي هدف . لذا فانه وهو يتعدل يعدل القيم التي يجادلها . وبذلك يتحقق النمو والتطور . خطوة بعد خطوة ، نحو مزيد من الاقتراب من الكمال .

ان خضوع الانسان للمادة ، للانتاج ، حالة جزئية ، وليست مطلقة ، وما فعله انجلز وسواه هو تعميم هذه الحالة ، بذلك ينقلون الاستلاب ليجعلونه حقيقة من حقائق الوجود المبداية ، بيد ان تحقيق الشيوعية يلغي الاستلاب ، اذا فالاستلاب ليس حقيقة مطلقة في الوجود ، بل هو حقيقة عندما يكون الاستغلال فحسب ، وهو منتف عندما نلغي الاستغلال ، وبكلمة اخرى ان كون الانتاج العامل الحاسم في التطور ليس صحيحا الا عندما يكون الاستلاب كاملا . عندها فقط تتشيأ الارادة الانسانية وتتأنس البضاعة . وهو ما يزول عندما تنتظم القوى الفعالة وتستعيد دورها ، فتلغي الاستلاب ، وتصبح في جدلها مع الوجود ، بوضعها اهدافها موضع التنفيذ ، العامل الحاسم في التطور .

من هنا كان اهم نقد لبرهان وجود الله الغائي ، واهم نقد للمادية هو ان الطبيعة تنتظم من قبل الانسان ، بفعل فعاليته الطالبة مزيدا من الكمال . نعم يتلقى الانسان من الوجود الصور، ولكنه يعود للوجود ليصنعه من اجل نفسه . فهو الذي يحوله من وجود سديمي — وجود لذاته — الى وجود من اجل الانسان عندما يضع فيه اهدافه وقيمه .

ان كون المادة مصدر الافكار لا يعني انها مصدر القيم والاهداف ، اي مصدر الفلسفة والاخلاق كانعكاس لها . والا فكيف نفسر « النقد » اصلا ؟ اذن يجب ان نجد مصدرا آخرا لهذه القيم والاهداف في الانسان نفسه كحامل وحيد لها . وليس من مصدر سوى كون الانسان يسعى للكمال وهو يدرك ما هو كائن على نحو لا يشبع مطلبه . لذا يضع قيما واهدافا ليتجاوز هذا الكائن ، ويتحرك بها نحو الوجود ليلغي النقص وليعدل الخطأ .

والوجود واحد ، بيد ان القيم والاهداف متنوعة . من هنا ازدياد الصراع وتلونات الجدل . ومن هنا اتخاذه سمت الصراع الطبقي. ومن هنا تتبرر الثورة كفعل مشروع ، على حين ان المادية عاجزة عن هذا التبرير ضمن ضرورتها .

نفهم ان الطبقة المسيطرة تفرض القوانين لتدافع عن مصالحها ، اما ان تكون هذه الطبقة مجبرة على وضع هذه القوانين خضوعا

للعلاقات الاقتصادية فهذا ما لا يمكن فهمه . نفهم ان تكون هناك علاقة جدلية بين افكار هذه الطبقة وانتاجها ، اهدافها تنمي الانتاج وتوجهه لصالحها ، والانتاج يعدل الاهداف بما يتناسب مع مساره. وفي الوقت نفسه نفهم ان تتصنم الالات وان يتصنم الانتاج تجاه الطبقة العاملة لا تجاه الطبقة المسيطرة المخططة الواعية لاهدافها .

نفهم ان تعمل الحرية ــ حرية الطبقة المسيطرة ــ في الضرورة، وان تعمل الضرورة في الحرية . اما ان تكون الضرورة المادية هي كل شيء ، فهذه هي مثالية هيجل التي نهرب منها . واكثر من هذا. انها تبريرية هيجل التاريخية . فما ذنب الرأسمالي ؟ انه هو الاخر مسكين ومسحوق ومستلب !! لا ذنب له . بيد ان الواقع ان للراسمالي ذنبه واذنابه .

ذكر ماركس قبل راس المال :

« أيها السادة لا تخدعوا انفسكم بالكلمة المجردة ــ الحرية ــ حرية من ؟ انها ليست حرية شخص بعلاقته مع شخص اخر ، لكنها حرية راس المال الذي يعمل على ان يحطم ويقضي على العامل » (١) .

هذا ما عناه هيجل بأن كل واقعي هو عقلي . لا لوم على الواقعي، على البورجوازي ، فهو ليس حرا في استغلاله العامل ، بل هو خاضع لضرورة راس المال . فاذا استخدم الاطفال والنساء فهو مجبر ، لان ضرورة راس المال الجشعة تلزمه بذلك ! انه ليس جشعا ، لا ، بل هو مثل الطفل في براءته ولذا يجب ان لا نثور ضده، ولا يجبان نغضب، فنحن وهو لسنا احرارا ، ولننتظر جدلالضرورة لتصنع البديل ، فتنظمنا لتصنع ثورتنا ! ان الثورة حتمية لانها مفروضة من الضرورة ولانها من صنع الضرورة . لننتظر وستفعل الضرورة فعلها .

هذه الالية خاطئة ومرفوضة لانها تلغي الجدل الحقيقي . ونقول الجدل حتى لا يظن ان عكس هذه الالية هو الصحيح . بمعنى أن

---

(١) بحث في التجارة الحرة ، خطاب القي سنة ١٨٤٨ . تجده في بؤس الفلسفة ص ٢٢٦ .

اهداف الانسان وارادته هي العامل الوحيد في صناعة الوجود .

ان الراسمالي مسؤول ، وهو ليس عبدا للانتاج كالعامل . وخلف الاعتقاد بعبوديته يكمن فهم خاطىء للحرية . ذلك ان الانسان بما هو من الوجود خاضع لمساره الحتمي ، بيد أنه ينال حريته منكونه حاملا للاهداف والقيم ، وهو عندما يجعل هذه الاهداف والقيم اساس حركته في الوجود ، انما يكون حرا ومسؤولا عن عمله . وهو يفقد حريته عندما يخضع لاهداف وقيم غيره ، لا لانه يخضع لمسار الوجود . من هنا فان الشيوعية لا تعني الا وضع اهداف وقيم الاكثرية الكادحة كأساس لحركة الكادحين وكبديل عن أهداف وقيم الراسمالي . وهذه هي الحرية التي تبشر بها . انها تلغي جدلا مؤقتا مزيفا بين قيم وأهداف خاصة وعامة لتستعيد الجدل الحقيقي بين الانسان والوجود ، لتحقيق مزيد من السيطرة على مسار الوجود .

على هذا الاساس من استعادة الجدل الحقيقي ، ننقد ذاك الفهم الالي للعلاقة بين البنى التحتية والبنى الفوقية ، والذي تتحول فيه العلاقة الجدلية لتصبح عملية خلق يقوم بها الانتاج للافكار .

لقد استند ( بضم الهمزة ) الى رأي انجلز عن مناسبة الاله اليهودي للخضوع البشري للقوى الغريبة الطبيعية والاجتماعية (١) لتبرير عدم نقد الدين ما دام يمثل هذه القوى المسيطرة،فهو انعكاس لها ، وعندما ننتفي هذه السيطرة سيزول الدين تلقائيا ، فكيف ننقد الدين قبل الاوان وننسى ضرورته ؟! وعلى ذلك يجب ان نبين خطأ ذاك الانسان الذي يرفض يهوه ويجب أن ننصحه بالايمان بالوهم حتى تبقى الامور متكاملة : الشيء ومنعكسه !

تلك آلية غير واعية ، لا تفهم العلاقة الجدلية بين الانسان والوجود ، بل وتنفيها لتقيم سخفا من القول . ان زوال الوهم لن ياتي بصورة آلية بعد زوال السيطرة ، وانما سياتي نتيجة للجدل الطويل بين الانسان والوجود ، بكشفه الوهم وبفضح الخطا والتزييف في الفكر الديني وفي كل فكر واستبدالها بفكر واع ونير .

---

(١) انتي دوهرنغ ص ٣٨٣

امر آخر يعكس هذه الالية ، ذكر انجلز :

« ... ان سائر النظريات الاخلاقية كانت حتى هذا التاريخ في آخر تحليل نتاجا لاوضاع المجتمع الاقتصادية السائدة في زمنها . وما دام المجتمع قد تطور حتى الوقت الحاضر ضمن التضادات الطبقية فان الاخلاق قد كانت على الدوام اخلاقا طبقية . فهي اما أن تبرر سيطرة الطبقة الحاكمة ومصالحها ، واما ان تمثل ، حالما تحوز الطبقة المضطهدة ما يكفي من القوة ، التمرد على تلك العقيدة ومصالح المضطهدين المقبلة في الوقت نفسه » (١) .

مرة أخرى البنى الاخلاقية تعبر عن الوضع الاقتصادي ، مع نسيان جدل الاقتصاد مع الانسان ، وجدل الانسان مع الانسان . نفهم ان تصنع الطبقة المسيطرة اخلاقا وقوانين للحفاظ على مصالحها ونفهم أن توجه هذه الاخلاق والمفاهيم كالوفاء وكالصدق ... توجيها مشوها ، فيصبح الوفاء وفاء للطبقة والاخلاص اخلاصا للطبقة . بيد ان مثل هذا التشويه مفضوح .

نعم لا توجد اخلاق واقعية ثابتة ومطلقة ، الا ان هذا لا ينفي ان الانسان صنع اخلاقه نتيجة لبحثه عن الكمال في مجتمعه ، وهو يعدلها ويبدلها . وهو يصنعها وسيصنعها نتيجة للتحريض الذي يشعر به وهو يرى تدني الواقع . ان الانسان يسير على الارض لكنه لا ينظر الى قدميه ، بل ينظر الى ما يزيد رفع رأسه شموخا ؛ ولا يزيده شموخا الا مزيد من القيم المتجهة الى مزيد من الكمال .

ما هو اساس حرية الانسان ؟ وكيف يعدل الضرورة ؟ كيف ينتقل من وضع الى وضع ؟ القيم في جدلها مع الوجود أساس التجاوز . والتجاوز ليس آليا ، كل تجاوز حرية ، والحرية اختيار بين مجموعة من القيم ، اختيار نحو الافضل . والشيوعية تمثل تجاوزا ، **فهي فلسفة الحرية** ، لانها تختار بين مجموع القيم قيم الكثرة ، فهي اختيار نحو الافضل . انها محاولة لتجاوز وضع سيىء بالارتقاء فوق

---

(١) المرجع السابق ص ١١٥

الاستغلال . فوق الالية ، فوق الحيوانية ، انها ارتقاء فوق قيم مجموعة من الاشخاص الى قيم مجموعة البشر بمعظمها .

خلاف هذا الفهم تنحدر « الدوغمائية » الى تبرير التاريخ كله . فما دامت الاوضاع الاقتصادية تصنع الاخلاق ، فكل جرائم التاريخ مبررة ، ويجب علينا ان نثمنها ، وان نعطيها افضل حكم ما دامت تعبر عن واقع اقتصادي ضروري . واذا كان علينا ان ندين احداً فلندن الاقتصاد ! بيد ان الادانة الصحيحة هي الموجهة ضد الانسان الذي اساء .

يتابع انجلز :

« .. ان أخلاقا انسانية فعلية تسمو على التضادات الطبقية وتسمو على ذكراها لا يمكن أن تصبح ممكنة الا في مرحلة من المجتمع لم تتغلب على التضادات الطبقية فحسب ، بل قد نسيتها ايضا في الحياة العملية » (١) .

اذن ستكون هناك أخلاق غير طبقية يوما ما .

الخطأ ان هذه الاخلاق موجودة هذا اليوم أيضاً على الرغم من كل الاخطاء وكل التشويهات . كيف يتعامل الكادح مع الكادح ؟ كيف يتلاحم المناضلون ويتعاونون سواء أكان العدو هو الراسمالي ام المستعمر ؟

نفهم أن الغاء الطبقات سيساعد على انشاء أخلاق افضل واعم . نفهم ان الثورة ستنمي الاخلاق الحالية ، وستطورها نحو الاسمى . بيد ان ما لا يمكن فهمه انكار قيمة الاخلاق الانسانية الحالية ، وما لا يمكن فهمه انكار التطور الانساني كله . ما الاخلاق الحالية الان؟ اليست نتيجة لكل ذاك التطور المرير والذي يندفع خطوة فخطوة نحو الامام ؟ ان ذاك الربط الذي يقترحه أنجلز ، ينسى كل التقدم . ويجعل الانسان في كل مرحلة يستعيد وضعه البدائي ، والا فان كل وضع جديد هو محصلة لكل التقدم سواء أكان اقتصاديا او فكريا ، وهو في واقع الامر كذلك ، يبقى ان نبرهن على ان المحصلة

---

(١) المرجع السابق ص ١١٥ .

الاقتصادية المستوعبة لكل التطور السابق تصنع المحصلة الفكرية المستوعبة لكل التطور السابق . وبذلك فان القضية ليست كون البنى التحتية تخلق البنى الفوقية ، بل هي هذه . فمن يجرؤ على تقديم مثل هذا البرهان الذي لا يمكن تقديمه .

والذي يبدو ان انجلز يعترض على دوهرنغ واخلاقه واسلوبه السيىء في الكتابة . ان كلمات دوهرنغ عن سواه غير اخلاقية ، وانجلز يعترض . لماذا ؟ انه يعترض لان كلمات دوهرنغ تتعارض مع اخلاق انسانية مفترضة في النقاش ، تتعارض مع آداب النقاش . اذن فهو يفترض وجود حدود مقبولة من الاخلاق البرجوازية تجاوزها دوهرنغ ، وهي وان كانت برجوازية تنفصل عن الانتاج الذي ولدها ليتقبلها بروليتاري وفي الواقع ان اعتراض انجلز صحيح لان هذه الاخلاق ليست وليدة انتاج برجوازي ، بل هي نتيجة لتطور طويل في قيم الانسان ، والتي تنتقل من جيل الى جيل وتتعدل بجدلها مع الواقع الى هذا الحد او ذاك ، باتجاه قيم اسمى واكمل .

****

الفلسفة تخطيط وتشريع ، ووضع للغايات ، وغاية الغايات هي الشيوعية في الفلسفة الماركسية .

والمفترض ان العالم يحلل الواقع ، وهنا تنتهي مهمته لتبدا مهمة الفيلسوف بوضع البرنامج او التشريع المناسب لذاك التحليل العلمي والمتجه نحو الغاية المثلى اي الشيوعية ، ولما كان الواقع متبدلا زمنا ومكانا فان البرنامج تبعا لذلك يتبدل . بيد ان الغاية النهائية لكل البرامج واحدة ، ولذا ليس من الغريب ان تسترشد هذه البرامج ببعضها زمنا ومكانا ، كما انه ليس من الغريب ان تتجه هذه البرامج نحو وحدة بصورة تلقائية وبصورة منظمة .

من هنا يصبح عمل الفلسفة محددا تحديدا دقيقا ، كتخطيط وكقيادة لصنع الثورة العمالية في اي بلد من البلدان وفق برامج مرحلية تقترحها . وهو ما نراه واقعا فعليا بالنسبة للاحزاب التي تتبنى الماركسية . ان هذه البرامج تكون موفقة وصحيحة وقادرة

على قيادة الجماهير عندما تستوعب ذاك الجدل بين الواقع او النظرية العلمية عنه والغاية الانسانية الشاملة او المثل الاعلى الشيوعي . وتكون هذه البرامج عاجزة اذا غفلت عن تحليل الواقع واذا تناست الهدف الاعلى ، واذا تراخى استيعاب هذا الجدل النامي بين الواقع والهدف . حقا ان النصر حليف للفعالية الانسانية، لكن الفعالية الواعية لغاياتها على ارض الواقع .

واذا كان العلم يحلل الواقع ، فان على الفلسفة ان تحلل الغاية سواء الغاية المرحلية او الغاية النهائية ، بذلك يرتسم افق المسار الطويل عبر المستقبل .

وقد حدد ماركس مرات قليلة بعض جوانب هذا الافق منذ الشباب وحتى النهاية . وقد مر معنا جانب من هذا التحديد عندما بحثنا في الانعتاق ويمكن أن نتابع الان ذكر بعض الجوانب الاخرى . وبطبيعة الحال لن نتعرض للبرامج المرحلية التي تحدد أهدافا آنية ، بل سنتعرض للغاية النهائية .

## ما الشيوعية ؟ كتب ماركس :

« ... الشيوعية ، الالغاء الايجابي للملكية الخاصة ( التي هي ضياع الذات الانسانية ، وبالتالي **التملك** الفعلي للماهية الانسانية من قبل الانسان ومن اجل الانسان ؟ اذن رجوع الانسان رجوعا كاملا لذاته كانسان اجتماعي ، اي انساني ، رجوعا واعيا تحقق مع الاحتفاظ بكل ثروة التطور السابق . هذه الشيوعية بوصفها طبيعية مكتملة = انسانية ، بوصفها انسانية مكتملة = طبيعية . انها الحل الحقيقي للتناحر بين الانسان والطبيعة ، بين الانسان والانسان، الحل الحقيقي للصراع بين الوجود والماهية ، بين التموضع وتاكيد الذات ، بين الحرية والضرورة ، بين الفرد والنوع . انها اللغز المحلول للتاريخ وهي تعرف نفسها على انها هذا الحل » (١)

« ان الغاء الملكية الخاصة هو اذن الانعتاق الكامل لكل الحواس

---

(١) مخطوطات ١٨٤٤ ص ٢١٢

ولكل الصفات الانسانية ، ولكنه هو هذا الانعتاق بالضبط لان هذه الحواس وهذه الصفات قد صارت انسانية ، ذاتيا وموضوعيا على حد سواء . . . » (١) .

« وعندما يصبح المجتمع الشيوعي في مرحلة عليا ، ويتوارى نظام تجزئة العمل الذي اذل الافراد ، ويختفي معه التناقض بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، عندما لا يظل العمل وسيلة للعيش ، ويضحي ، في حد ذاته ، حاجة الحياة الاولى ، عندما يتزايد تطور الافراد ، وتتضاعف قوى الانتاج ايضا ، وتتفجر جميع منابع الثروة التعاونية بغزارة ، حينئذ يمكن تجاوز افق الحق البورجوازي الضيق نهائيا ويستطيع المجتمع ان يكتب على راياته « من كل حسب طاقاته ، ولكل حسب حاجاته » (٢) .

عبر هذه النصوص يمكن ان نستعيد القول السابق كله ، ويمكن ان نستعيد تاريخ الفلسفة كليا لنرى موقع الماركسية فيها .

ولنبدأ بقضية العكس ذاتها ؟ فما هو موقف الماركسية بالضبط بالمقارنة مع القول الفلسفي ؟ ان ثنائيات الفلسفة التي كشفت وعمقت ابعادها في تاريخها كانت تبحث عن الحل الفكري ، وبذلك تنوعت الآراء لحل هذه المعضلات تارة او لحل هذه التناقضات مرة اخرى ، وكلما حسب فيلسوف انه وصل الى الحل الفكري النهائي ابان التاريخ عن عجز ما في حله ، وقد توج هيجل هذه الحلول بجدله ، وهو بطبيعة الحال جدل فكري ، وجاءت الماركسية ، لتقر بهذه الثنائيات اولا ، ولتوقف القضية على قدميها ، اذ ليس المطلوب ان نجد حلا منطقيا لهذه الثنائيات ، بل المطلوب ان نبحث فيها على ارض الواقع ، وان نحاول ازالة التناقض الحقيقي على هذه الارض . ان كل المحاولات الفلسفية السابقة تنسى ان هذه الثنائيات واقعية ، وان اي جواب فكري ما هو الا لعبة ذهنية لا تعني الكثير ، ما دام التناقض في صلب الوجود . وعلى

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٩

(٢) نقد برنامج غوتا : ص ٢٩ . ماركس :ت صلاح مزهر دمشق ١٩٧٤

ذلك فمهمة الفيلسوف ليست انشاء كتاب متناسق ، يلغي فيه التناقض بالجمل وبالكلمة بل مهمته ان يحدد كيف يمكن أن نلغي التناقض واقعيا .

وعلى سبيل المثال هناك التناقض بين الحرية والضرورة ، ولقد تحطمت كل المحاولات التي تحاول ردم هذه الحفرة ، فتارة يحتفظ بالتناقض بنوع من التلفيق ، وتارة تلغى الحرية ، وتارة تلغى الضرورة . أما الجواب الماركسي فيتضمن الاعتراف بهذا التناقض ولا يرفعه ما دام واقعيا ، وبالتالي فان المهمة بعد هذا الاعتراف الضمني ، معرفة أسباب زوال الحرية حينا ، ومعرفة أسباب نقص الحرية في الحين المكمل ، وبالتالي ما هي الوسائل التي تجعل هذه الحرية ممكنة ، وبالتالي كيف يمكن أن نزيد من امكانيات هذه الحرية، وبالتالي كيف نزيل هذا التعارض على ارض الواقع . وكل هذا لا يكون الا بتلك الدراسة العلمية للواقع ، وبالتالي الا بوضع الاهداف الجذرية التي تجتز السبب الرئيسي وتحسمه .

لقد استبدل ماركس بجدل الافكار ، **جدل الواقع** ، جدل الانسان ( عمله الهادف ) مع الارض . وبذلك تتبدى ثورته الفلسفية التي تستعيد الطرح الفلسفي الاستعادة الكلية ، وهو ما يحدد موقع هذه الفلسفة من التاريخ كتتويج له . وبذلك يسقط ذلك الادعاء المجحف والذي يعتبر الماركسية مقبرة للفلسفة ، لاننا نمضي ابعد من هذا، لنقول عن حق ، **ان الماركسية هي الفلسفة الوحيدة التي تضع مباحث الفلسفة على قدميها ، والفلسفة الوحيدة التي تصنع أفقا للتاريخ الانساني .**

ان جميع الفلسفات السابقة من دون افق ، لانها تنظر الى الوراء الى الازل . فقيمها ومعاييرها لا تنطلق نحو الامام ، بل تستلهم ما قرر في مسرحية الازل ، ولذا فكل مهماتها كانت تعقيل ما هو موجود وتبريره بحسب الغاية الكاملة السابقة ، وبالتالي جعل هذا الوجود كاملا مثل الغاية الالهية الموضوعة فيه . ان غاية الفلسفة ، كانت هي استيعاب الوجود على ما هو عليه وادراك غايته وبالتالي التوافق — عمليا — مع هذا الوجود مهما كانت الاوضاع . وهكذا فان هذه الفلسفات ، وان كانت تستلهم الازل ، فقد انتهت

الى تبرير الواقع والى اعتباره غاية الكمال كيف لا وفي هذا الواقع تجلت العناية الازلية والغايات الكاملة ؟ وبذلك ، فان هذه الفلسفات ركعت للواقع حينا ، وتعلقت بأوهام الماضي السحيق حينا اخرا . محاولة بالوهم استعادة لحظات من السعادة الفردية الواهمة بالاتصال الوهمي بذاك الازل ، من هنا كانت هذه الفلسفات ، بتعلقها بالماضي ، وباقرارها للواقع ،كانت فلسفات من دون مستقبل ، ومن دون افق . ومن هنا احتقارها للواقع ، أو رفضها البحث في الواقع ، ومن هنا كانت انظمة فكرية مغلقة ، تتعلق بالكلمة وحدها ، ففيها السؤال والجواب ، وكيف لا يكون هذا والمعرفة تذكر للكلمات الاولى الازلية ، والوجود ظل لتلك الكلمات ، من افلاطون الى هيجل ، مع اختلافات لا تمس هذا الجوهر الاساسي . ولكن من دون جدوى فالاشكالات المطروحة لا حل لها .

مقابل كل هذا تقف الماركسية لتستعيد كل اللحظات الفلسفية المنزوية في التاريخ ، ولتبلورها حول محور أساسي ، بل ولتستعيد السؤال الفلسفي بوضعه الصحيح ، معدلة مضمونه وشكله ، وموضوع البحث فيه وطريقة البحث هذه ، لا لتجد الجواب المطلق ، كما هي شيمة كل فيلسوف سابق ، مغلق ومن دون افق ، بل لتتلمس المشكلة اولا . ولتشق طريقها ، وبالتالي ، لتصنع افق الجواب ، بمعنى ان تضع الجواب كتاريخ انساني على أرض الواقع ، فالجواب اجوبة . وهي تنمو مع التاريخ في التاريخ عبر التاريخ ، ولا جواب مطلق . وهذه هي الدلالة الاولى للافق الفلسفي . اما دلالته الثانية ، والتي نشتقها من هنا ، فهي كون الماركسية لا تحجز واسعا ، ولا تغلق نفسها على دوغمائية نهائية . اذ ما دام الواقع هو الاساس وليست الكلمة . وما دام هذا الواقع وبالتالي الانسان وبالتالي الفلسفة متبدل ، فالافق منفتح للقول ، منفتح للاهداف ، منفتح للفلسفة المرة تلو المرة ، اذ ليست غايتها تعقيل الوجود ولا تبريره ، بل غايتها تبديل هذا الوجود ، ومع كل تبديل جديد يتضح أفق جديد ، وينشأ جدل جديد وتتحقق اهداف جديدة .

الماركسية لا تتعلق بمسرحية الازل ، وفي الان نفسه لا تغرق نفسها في رمال الارض ، وانما تتعلق بأمر واحد هو الانسان وحريته ،

وتحلل امرا واحدا هو جدل هذا الانسان مع الوجود ، ولذا كانت الفلسفة الوحيدة التي تضع أفقا للفلسفة ، اي تضع افقا للانسانية، على حين كانت الانسانية في كل الفلسفات السابقة غارقة في رمال الارض وان ادعت التطلع الى العلاء ، وعلى حين كانت الانسانية في كل الفلسفات السابقة مغلقة ، ضائعة ، تتطلع الى الوراء ، الى الوهم . وبذلك نستطيع أن ننعت الماركسية بأنها الفلسفة الانسانية الوحيدة ، وان كره الغارقون في الرمال .

انها فلسفة الانسان ، لانها لا تبحث فيه عبر الكلمة الازلية ولا تبحث فيه عبر الضرورة الوجودية ، وانما تبحث فيه عبر جدله مع الوجود ، مستعيدة اطروحة العمل الغائي ، المسبوق بالافكار . وانما تبحث فيه لتحقيق غاية واحدة لا غير هي تحرير عمله ، تحرير فكره ، تحريره من المذلة والهوان ، تحريره من الضياع ، ليستعيد انسانيته . وليس عبثا ان يجعل ماركس الماركسية أو الشيوعية كلمة مرادفة للانسانية ، ذلك انه بالشيوعية عودة الى طبيعة الانسان الغائي المختلف عن الالة والحيوان ، ولكن هذه العودة ليست عودة الى البداية ، بل عودة الى طبيعة تتكامل شيئا فشيئا الى انتكون كاملة، والطبيعة المكتملة هي الانسانية الحقة ، هي الانسانية الحرة التي تحررت من كل اشكالات الفلسفة وثنائيتها على ارض الواقع، لا بالكلمة ولا بالوهم، لا بالماضي ، بل في المستقبل مع بناء الشيوعية ، على ارض الواقع . والماركسية هي الفلسفة الوحيدة التي لها أفق ، لان غايتها الاساسية هي السعي وراء تحقيق هذه الانسانية المكتملة لا كما كانت في الماضي ولا كما هي الان ، بل في المستقبل .

# خاتمة القسم الاول

الواضح في راس المال من البداية الى النهاية هو قضية العمل . وبذلك فهو علم العمل . العمل كصانع لراس المال وكأساس للانتاج . وبذلك فهو بديل المادية التاريخية .

حتى الابحاث النظرية البحتة مثل انواع القيمة ، صورة القيمة ومادتها . . كتبت لتستخدم فيما تبع لشرح العمل وقد أصبح سلعة. اذن ليست القضية شرود جملة يستشهد بها ، بل هي ما هو المحور وما هو الاساس ؟ ولا اساس اخر في راس المال غير العمل والعمل فقط .

وعندما نقول العمل ، نضع في الاعتبار سبق الافكار له ولحوقها عليه ، فلا عمل من دون أهداف وقيم . واذا كانت المثالية تضع النظام الفكري في البداية ، فان الماركسية تختلف عنها بكونها تؤكد ان لا اهمية للافكار الا عندما تتحول الى عمل . اذ أنه اذا كان الانسان لا يعمل دون أفكار فالافكار مجرد كلمات من دون عمل .

وغلى ذلك فان ما يلحق علم العمل هو فلسفة العمل والتي توضح الاهداف والقيم التي تحتاجها الجماهير لتصنع ثورتها .

على هذا النحو ناقشت الماركسية الدوغمائية بدءا من خلطها بين الفلسفة والعلم ، وبينت خضوعها لتحليلات ارسطو عن المشكلة الانطولوجية . ونقدت كونها تريد أن تقول الوجود فلسفيا ، لان الوجود يقال علميا فحسب . وكجزء من البحث كون الانسان يدرس

علميا أيضا ، بما هو من الوجود ، نشأ عن تطور المادة ، رادا تفرده الى كونه الحامل الوحيد للقيم وللغايات . من هنا نقدي لذلك التفرد المزيف الذي تبحثه المثالية عند طرحها قضية « الروح » . والماركسية عند قلبها للمثالية احتفظت بصيغها المزيفة ، وان تحدثت عن أولوية المادة على الروح . ولا يوجد شيء اسمه الروح انما يوجد شيء اسمه الدماغ وظيفته التفكير لا الفكر ولا الروح .

من كل هذا نجد ان العلم وحده يدرس الوجود ويقرر لم هذا الوجود بما فيه الانسان . والفلسفة لا تقول اية كلمة تحوي معنى . العلم وحده يبحث ويجيب ، بما في ذلك بحثه في الانسان كعارف ( نظرية المعرفة ) وبما في ذلك بحثه في الانسان كعامل ( الاقتصاد والتاريخ والمجتمع ) . وهو ما صنع بعضه ماركس في راس المال .

اما الفلسفة ، فلسفة العمل ، فهي مشروع لم ينجز حتى الان ، لان « الدوغمائية » عودة الى الوراء لتنسيق الكتابات الماركسية حول محور مادي خاطىء ، مع تجاهل للمحور الجديد الذي يجب أن تتطور نحوه ، أعني : العمل .

وفي سبيل مثل هذا المشروع نقدت « الماركسية الدوغمائية » بالاستناد الى اطروحات راس المال والاطروحات المتوافقة معه والتي كتبت فلسفيا قبله . جاعلا القضية دائرة حول سؤال جوهري: أيهما أصح بالنسبة لراس المال جعل المادية هي العامل الحاسم في التطور وفي الجدل ، وهو ما تتبناه الدوغمائية حاليا أم العمل هو العامل الحاسم ؟ مستعيدا جدل الانسان مع المادة ، ومستعيدا دور الحرية في الضرورة ، وهو ما لم تستطع « الدوغمائية » الحالية تجاوزه بعودتها الى هيجل .

ان هذا ليس اكثر من محاولة لفهم الماركسية الصحيحة ، في سبيل انشاء فلسفة العمل .

# القسم الثاني

# نحو فهم اللينينية

(( ان فكرة تحول المثل الاعلى الى واقع هي فكرة عميقة ، انها هامة جدا للتاريخ وكذلك في الحياة الشخصية للانسان ، اذ من الواضح أن فيها كثيرا من الحقيقة ضد المادية الشائعة )) (١) .

لينين

(١) راجع : دفاتر عن الديالكتيك : لينين ت: الياس مرقص . دار الحقيقةبيروت ط١ ١٩٧١ ص ١٥٠ . لكن اثرنا ترجمة أخرى أكثر دلالة وقد وردت في (( فكر لينين)): لوفيفر ت: د كمال غالي واديب اللجمي ص ٢٤٦ دمشق – وزارة الثقافة ١٩٦٩ .

**تمهيد :**

ما هي اسس اللينينية ؟ انها كما يلي :

١ ــ الماركسية مرشد عمل .

٢ ــ الماركسية تحليل ملموس للواقع الملموس بكل ما يشمله من عناصر في وضعه التاريخي ، وفي تبدلاته المستمرة ، لانشاء علم الاجتماع الماركسي .

٣ ــ الماركسية كهدف عام ، وكمثل اعلى ، هي الشيوعية .

٤ ــ ان البرنامج او الهدف المرحلي يشتق من الهدف العام وبما يتناسب مع الواقع او النظرية العلمية عنه وبذلك ننشىء الفلسفة الماركسية كتشريع وكتخطيط .

٥ ــ العمل الغائي ، وبه تتكامل الاسس ، عبر التنظيم الثوري، وعبر الفعالية اليومية المتوجة بالثورة لالغاء عبودية الانسان ، وبالتالي العمل الغائي لتنظيم المجتمع الجديد باتجاه الهدف العام .

فلننظر في التفاصيل لنرى مدى تطابق هذه العناصر مع افكار لينين ، ولنرى مدى صدقها .

لقد ميزت في القسم الاول مرحلة راس المال التي تؤسس علم العمل ، وهذه المرحلة ليست زمنية ، ولذا فالمقصود بها اتجاه او خط ، نجد مقدماته في بعض كتابات ماركس وانجلز ، كما نجد كماله في كتابات لينين . نعم لقد طرحت القضية تجاه تيار آخر متسائلا : انفهم الماركسية بحسب اخر انتاج ماركس ام بحسب انتاجه قبل ذلك ؟ وقد كان الجواب المنطقي : يجب فهم الماركسية بحسب راس المال . ولسنا بحاجة الى مثل هذا الطرح مع لينين . بيد أن القضية هنا تأخذ شكلا جديدا ، اذ يمكن ان نقسم انتاج لينين الى قسمين ، القسم الاول وهو كتابات نظرية ، يستعيد فيها الماركسية كما هي ، والقسم الثاني وهو ما يمكن ان نحدده بالكتابات العملية . ومنذ البدء نقول

ان كتابات لينين النظرية تعاكس الى حد بعيد خط راس المال ،والخط الذي وضحناه كعلم للعمل وكفلسفة للعمل . لكن هذه الكتابات النظرية قليلة وهي لا تعتبر اسهاما اساسيا من قبل لينين وانما اسهامه الاساسي يتبدى في القسم الثاني ، ونعني به المعالجات النظرية للمواقف العملية ، الواقعية ، المحسوسة ، والتي تقتضي دراسة علمية ، مثلما تقتضي تحديدا للغايات المتوافقة معها . من هنا نجد ان محورة اللينينية انما يجب أن يكون بحسب هذه المواقف العملية ، عندها يستبين ان لينين انما يتابع خط راس المال وينميه موضحا علم العمل وفي الان نفسه موضحا فلسفة العمل الغائي في جزء كبير منها . ومما يقلل من شأن النصوص التي يذكرها كبحث نظري بحت ، والتي يعتبر الانتاج فيها هو الاساس .

نقول هذا محاولة للبحث عن المحور الجوهري في الماركسية واللينينية ، بدل الاكتفاء بهذا الاستشهاد ، أو ذاك لتأييد وجهة نظر ما ، اذ ما أسهل هذا العمل المتجاهل لوجهة نظر معاكسة . لن نغمض العينين كي لا نرى ما لا يتوافق مع تحليلنا ، وانما نستعيد الموضوع بجذريته : هناك تياران فأيهما الجوهري والاساسي عند لينين ؟

## ١ ــ الماركسية مرشد عمل :

الماركسية ليست قانون ايمان بل مرشد عمل . **كتب لينين :**

« كان انجلز يقول في معرض الحديث عن نفسه وعن صديقه الشهير ان **مذهبهما ليس بمذهب جامد ، انما هو مرشد للعمل** . ان هذه الصيغة الكلاسيكية تبين بقوة رائعة وبصورة أخاذة هذا المظهر من الماركسية الذي يغيب عن بالنا ، **نجعل من الماركسية نسيئا وحيد الطرف ، عديم الشكل ، شيئا جامدا لا حياة فيه ونفرغ الماركسية من روحها الحية ، وننسف أسسها النظرية الجوهرية ــ ونعني بها الديالكتيك ــ أي مذهب التطور التاريخي المتعدد الاشكال والحافل بالتناقضات ــ ونضعف صلتها بقضايا العصر**

**العملية والدقيقة ، التي من شأنها أن تتغير لدى كل منعطف جديد في التاريخ . » (١)**

وكتب أيضا :

**« ان مذهبنا لـــيس عقيــدة جامدة بـل مرشــد للعمـل،** هكذا قال دائما ماركس وانجلز . **ساخرين على حق من الصيــغ المحفوظة غيبا والمرددة كما هي ، القادرة في أحسن الاحوال ، على تبيان أهداف عامة على وجه التقريب ، يعدلها بالضرورة الطابــع الملموس الاقتصادي والسياسي لكل طور مـــن اطوار المجرى التاريخي » (٢) .**

ويذكر كلمات غوته :

« ان النظرية رمادية اللون . يا صديقي ، ولكن شجرة الحياة خضراء الى الابد » (٣) .

ويكرر الكلمات ذاتها الماركسية مرشد عمل ، لا عقيدة جامــدة في المؤتمر الاول لسوفيات نواب العمال والجنود (٤) .

ويكرر ايضا :

**« ان نظريتنا ليست عقيـــدة جامدة ، بـــل مرشد للعمل** هكذا قال ماركس وانجلز ، ان اعظم غلطة واعظم جريمة ارتكبهــا الماركسيون « من الماركة المسجلة » امثال كارل كاوتسكي واوتوبارد ومن على شاكلتهم، هو ان هؤلاء لم يفهموا هذا الامر ولم يستطيعوا تطبيقية في اللحظات الفاصلة من ثورة البروليتاريا » (٥) .

وكتب أيضا :

**« وبالضبط لان الماركسية ليست عقيدة جامدة ، ميتة ، مذهبــا**

---

**(١) ماركس ــ انجلز ــ الماركسية : لينين ص ٢٣٦ دار التقدم موسكو . كتــب سنــــة ١٩١٠ .**

**(٢) المرجع السابق : ص ٤٤٦ رسائل حول التاكتيك . الرسالة الاولى ١٩١٧**

**(٣) المرجع السابق : ص ٤٥٠ رسائل حول التاكتيك . الرسالة الاولى ١٩١٧**

**(٤) المختارات : مجلد ٢ الجزء ١ ص٢١٦ . (١٩١٧) دار التقدم بموسكو . مطابع دار المعارف بمصر عام ١٩٧١ .**

**(٥) المختارات : مجلد ٣ الجزء ١ ص ٥٢٤ . « مرض اليسارية الطفولــي فــي الشيوعية » ١٩٢٠ .**

**منتهيا ، جاهزا ثابتا لا يتغير ، بل مرشد حي للعمل ، لهذا بالضبط كان لا بد لها من أن تعكس التغير الفريد السرعة في ظروف الحياة الاجتماعية** . فقد ادى هذا التغير الى تفسخ عميق ، الى بلبلة ، الى ترددات متنوعة ، وبكلمة ، الى أزمة داخلية خطيرة في الماركسية . ولذا توضع من جديد في جدول الاعمال مهمة القيام بعمل حازم ضد هذا التفسخ ، ومهمة القيام بنضال شديد عنيد دفاعا عن أسس الماركسية ... » (١) .

وكتب أيضا :

« .. فلا يمكن أن يقوم حزب اشتراكي صلب اذا لم تكن ثمة نظرية ثورية توحد جميع الاشتراكيين ويستمدون منها جميع معتقداتهم ويطبقونها في اساليب نضالهم وطرائق نشاطهم ؛ واذا ما دافعنا عن هذه النظرية ، التي نعتبرها صحيحة في أعمق اعتقادنا ؛ دون التهجمات الباطلة ودون محاولات تشويهها فان هذا لا يعني البتة اننا أعداء كل انتقاد . **فنحن لا نعتبر ابدا نظرية ماركس شيئا كاملا لا يجوز المساس به ، بل اننا مقتنعون ، على العكس ، بأنها لم تفعل غير ان وضعت حجر الزاوية لهذا العلم الذي يترتب على الاشتراكيين أن يدفعوه الى الابعد في جميع الاتجاهات ،** اذا شاؤوا الا يتأخروا عن موكب الحياة . ونحن نعتقد انه من الضروري بخاصة ان يدرس الاشتراكيون الروس ويطوروا نظرية ماركس بصورة مستقلة **لان هذه النظرية لا تعطي سوى موضوعات توجيهية عامة تطبق** ــ مثلا ــ في بريطانيا على غير ما تطبق في فرنسا ، وفي فرنسا على غير ما تطبق في المانيا ، وفي المانيا على غير ما تطبق في روسيا » (٢) .

وهناك عشرات النصوص الاخرى التي تؤكد كون الماركسيةمرشد عمل، والتي تهاجم وتنقد بعنفالجمود والترديد الابتر للاستشهادات والترديد الببغائي لهذه الجملة او تلك ، **والقولبة ــ والكلمة للينين ــ للقواعد** بصورة ميكانيكية (٣) .

---

**(١) ماركس ــ انجلز ــ الماركسية : ص ٣٤١ ( سنة ١٩١٠ )**

**(٢) المرجع السابق ص ١٣٩ برنامجنا ( سنة ١٨٩٩ )**

**(٣) راجع المختارات مجلد ٣ الجزء ١ ص ٥٤٨**

كثيرا ما نقرأ ونسمع ان الماركسية مرشد عمل ، ولكن على سبيل القول لا على سبيل الفعل والتطبيق . اذ ليس المهم ان نردد تلقائيا « مرشد عمل » ، والا كنا في الوضع المناقض لهذا المدلول ، وانما المهم ان نفهم وان نعمل على اساس ان الماركسية ليست قوانين ايمان ، ولا صيغ علمية ثابتة ، كاملة ، ليست مذهبا دوغمائيا ، لا يقبل الانماء ولا التطور ولا التبديل ولا النقاش ، وهو ما نلاحظه سائدا امامنا .

الماركسية مرشد للعمل يعني نفيا للجمود ، يعني نفيا للمذهبية وللوثوقية ، يعني نفيا للقانون الطلق الصدق .

ومنطلق هذا الاساس ، اساس هذا الاساس ــ كما قال لينين ــ هو التطور والتبدل ، اساسه الجدل ــ بمفهومه الواسع الذي اعطاه له لينين ــ فبما ان الواقع متبدل ، فالنظرية عنه متبدلة ، والهدف الموضوع له متبدل ايضا .

معنى ذلك ان عليك ايها الماركسي الذي آمنت بالشيوعية هدفا ان تكون مثل ماركس ومثل لينين . هكذا حلل ماركس واقعه ، فأدرك تاريخيته وادرك كل عناصره ، وادرك تبدلاته ، وكشف زيف الادعاءات والنظريات و . . و ، فافعل مثله ، حلل واقعك ، واستخرج نظرية علمية عنه ، وضع البرنامج المناسب كي تسير نحو الاشتراكية .

عدا ذلك ــ كما ذكر لينين ــ يحدث التبلبل والتفسخ . لكن حفظة القوانين قلبوا الآية ، فعدم القول بالقوانين يؤدي الى الفوضى ! ولذا حفظوا الصيغ الجاهزة ، ليسحبوها بكل يسر عند أول نقاش. أما الواقع فهم غريبون عنه وهو غريب عنهم .

معنى مرشد عمل أن لا نستشهد بفلان أو بفلان ، بل ان نستشهد بالظواهر الواقعية الملموسة في واقعنا الخاص .

وعندما يختلف الواقع مع الصيغة القانونية ، يكون الالتزام بالواقع فحسب ، لان تلك الصيغة وضعت لظرف مكاني وزماني محددين ، ولم تصبح قانونا مطلقا .

وهو ما سوف يتضح في الاسس الاخرى ، لترابط وتشابك هذه الاسس بشكل متكامل .

## ٢ ـ تحليل القضايا الملموسة بطريقة ملموسة :

هذا هو الاساس الثاني في اللينينية ، وبه يتأسس علم الثورة او علم الاجتماع السياسي الماركسي . فكيف يقوم العلم ؟ وما هي شروط قيام العلم ، وكيف يتناول العالم موضوعه ؟ وعلى وجه الخصوص كيف يتناول عالم الاجتماع هذه الظاهرة او تلك ؟
منذالقديم ، يطالب (بضم الياء) العالمبالموضوعيةوبالنزاهة وهو يعالج قضية من القضايا ، وهذا يعني نبذ الاراء المسبقة ، او وضعها موضع الفرض لا موضع الحقيقة المطلقة ، اذ من المحال ان يعالج العالم قضية ما وهو خالي الوفاض ، ولكن شتان بين اعتباره ما يحمل من آراء على انها صادقة ولا مجال للشك فيها واعتباره ما يحمل من آراء موضع بحث ، كما ان هذا يعني تجرده عن مصالحه ورغباته الشخصية ليستطيع صياغة حكم موضوعي منزه عن الاغراض .

ومنذ القديم نجد الصعوبة الفائقة في الدراسات الاجتماعية التي تسعى للوصول الى يقين الدراسات الطبيعية وشمولها . ومصدر هذه الصعوبة ليس مجرد تعقد الحياة الاجتماعية والنفسيةفحسب، بل هو بالدرجة الاولى ، هذا الاختلاف البين بين أنواع الحياة الاجتماعية زمنا ومكانا . ان تفاوت التطور بين المجتمعات واختلاف نوعيته فيما بينها ، بل تفاوت التطور واختلافه في المجتمع الواحد يؤدي حتما الى انتفاء وجود قوانين موضوعية مطلقة .

وبالنسبة للماركسية تقعرت في قوانين حتمية ، اكتسبتبسببها اسم الاشتراكية العلمية . فهي علم لانها كشفت هذه القوانين العلمية . وبذلك ما اسهل تطبيق تلك القوانين هنا وهناك ، ولا بأس بالقول ، انه يجب تطبيقها بمرونة لوجود بعض الاختلافات او لوجود بعض الخصائص المميزة .

فهل هذه هي الماركسية الحقيقية ؟ وما هو موقف لينين من كل هذا ؟ وكيف يفهم مضمون العلم ونهجه ؟

ان موقف لينين مكرر عشرات المرات في كتبه ، وهو الموقف

المضاد لهذه الماركسية المقولبة تماما . وما نزاعه مع خصومه الا تأكيد على وقوفه بجانب العلم ضد هذا التطبيق الخاطىء للمجرد على المحسوس ، لقسر المحسوس علـى الانطواء تحت المجرد . فالمجرد يستقى من المحسوس ، ولا يستقى المحسوس من المجرد .

موقف لينين محدد بتحليل الواقع بشكل محسوس . بدراسة جميع العلاقات من جميع النواحي ، بالبحث في الخاص ، ورؤية حركته ونموه لاكتشاف قوانينه ولتعديل هذه القوانين بحسب ذاك التطور .

ولكن ماذا يبقى من الماركسية كعلم اذا فهمنا الامر على هذا النحو ؟ يبقى انها مرشد عمل . مرشد يطالب بكل صدق أن نبحث في الواقع ، مقابل المثالية التي تنشىء المذاهب المجردة في غرفة مغلقة . يبقى انها مرشد يطالبنا بان نبحث في كل العلاقات الموجودة . مقابل المثالية التي تغمض العيون عن بعض العلاقات لتزيف الافكار . ولتستخرج مذاهب تهدف الى طحن واستعباد اكثرية البشر . يبقى أنها مرشد تطالبنا بعد دراسة الواقع دراسة موضوعية ومنزهة . أن نضع الهدف المناسب للواقع وللمثل الاعلى ، والذي هو تحقيق العدل والمساواة .

بذلك ننتقل من الماركسية الدوغمائية ، من الماركسية « **كقانون ايمان** » الى ماركسية نضالية ، مطالب معها كل ماركسي بالعمل وبالبحث بدل حفظ الشعارات وترديدها .

كتب لينين عن الموضوعة الديالكتيكية الاساسية ما يلي : « **يجب تحليل القضايا الملموسة بطريقة ملموسة لا أكثر** » (١) .

وكتب ايضا : « **ان المبدأ الاساسي للديالكتيك هو انه ليس ثمة حقيقية مجردة فالحقيقة ملموسة أبدا** » (٢) .

---

**(١) المختارات مجلد ١ جزء ١ ص ٥٥٨ خطوة الى الامام .. (سنة ١٩٠٤)**

**(٢) المرجع السابق ١/١ ص ٦٠١ خطوة الى الامام**

ونقد بوخارين لانه لم يراع هذا المبدأ الاساسي فقال : « ولكن بوخارين قد اخطأ . لانه لم يمعن الفكر **بالخصائص الملموسة** للوضع الراهن في روسيا . وهو وضع استثنائي ، على وجه التدقيق . . »(١)

ونقد بليخانوف لانه يسعى الى تطبيق المبدأ العام على الواقع . فقال : « . . اما الطريقة المعكوسة في المحاكمة ، التي غالبا ما نراها في الجناح اليميني من الاشتراكية — الديموقراطية وعلى راسه بليخانوف — اي الميل الى السعي وراء الجواب على **المسائل الملموسة في مجرد التطوير المنطقي لحقيقة عامة تمس** طابع ثورتنا الاساسي — **فانها لا تؤدي الا الى ابتذال الماركسية وليست سوى صورة مشوهة ،** صورة كاريكاتورية للمادية الديالكتيكية » (٢) .

لماذا ؟ كتب :

« وانها لحقيقة فلسفية وتاريخية لا جدال فيها . اذا ما القينا نظرة شاملة على عهد الثورة الاشتراكية بمجموعه ، **ولكن كل حقيقة مجردة تغدو جملة فارغة ! اذا طبقت على كل وضع ملموس، أيا كان . » (٣)**

وكتب أيضا :

**« ان الاستعاضة عن الملموس بالمجرد انما هي خطأ من الاخطاء الرئيسية ، الاخطاء الاكثر خطرا على الثورة » (٤) .**

كيف ؟

لان كل شيء نسبي ومتغير . قال : « ينبغي طرح المهمات السياسية الملموسة في وضع ملموس **فكل شيء نسبي يمضي، كل شيء يتغير** » . (٥) وقال : « ان الماركسية تقضي **بأن تؤخذ الاحوال**

---

(١) المختارات ٣/٢ ص ٢٣٩ عن الضريبة العينية ( سنة ١٩٢١ )

(٢) مجموعة ماركس — انجلز — الماركسية ص ٢٧٩ تطور الراسمالية في روسيا ( سنة ١٩٠٧ )

(٣) المختارات ٢/٢ ص ١٤٥ درس قاس ولكنه ضروري ١٩١٨

(٤) المختارات ٢/١ ص ٢٦٦ حول الشعارات ( سنة ١٩١٧ )

(٥) المختارات ٢/١ ص ٨٩ خطتنا الاشتراكية الديموقراطية ( ١٩٠٥ )

**الموضوعية وتبدلها بعين الاعتبار ، ويجب طـرح المسالة بصورة ملموسة ، تبعا لهذه الاحوال .. » (١) .**

ولانه يجب وضع القضية الخاصة في نطاقها التاريخي . قال : « حين يعمد المرء الى تحليل قضية اجتماعية ايا كانت ، توجب عليه النظرية الماركسية اطلاقا ان **يضع تلك القضية في نطاق تاريخي معين** كما تشترط عليه ايضا اذا كان الموضوع يدور حول بلد بمفـرده ( مثلا حول البرنامج القومي لهذا البلد ) ان **يأخذ بعين الاعتبـار الخصائص الملموسة التي تميز هذا البلد عن سواه ، في حدودحقبة تاريخية واحدة معينة » . (٢)** وقال: « اما الذين يجب اجبارهم فهم بعض المثقفين . يجب اجبارهم على النظر الى مهامهم نظرة اوسع. **اجبارهم على الاقلاع عن استعمال الصيغ الجامدة المكررة عنـد درس المسائل الملموسة ،** اجبارهم على حسبان الحساب للوضـع التاريخي الذي يعقد ويعدل اهدافنا » (٣)

ولانه يجب حساب العلاقات من جميع النواحي ، والاخذ بالاعتبار كون هذه العلاقات تتطور . كتب لينين : « ان الجوهر النظـري لذلك الخطأ الذي يقترفه هنا الرفيق بوخارين يتقوم في كونه يستعيض عن العلاقة الديالكتيكية بين السياسة والاقتصاد ( هذه العلاقة التي تعلمنـا اياهـا الماركسية ) بالاختيارية . « هذا » و « ذاك » « من جهة . ومن جهة اخرى » هذا هو موقف بوخارين النظري . وهذا هو الاختيارية بالذات . **اما الديالكتيك فانه يتطلب حسبـان العلاقات من جميع النواحي خلال تطورها الملموس ، لا انتـزاع قطعة هنا وقطعة هناك ... »** (٤) ويكرر: «اما المنطق الديالكتيكي فانه يتطلب منا ان نسير الى ابعد . **فلكي نعرف الشيء فعلا ، يجب** ان نأخذ وندرس جميع جوانبه ، جميـع علاقاتـه « واستدلالاته » ونحن لن نتوصل ابدا الى هذا بصورة كلية ، ولكن مطلب **شمـول** جميع الجوانب يقينا من الوقوع في الاخطاء وفي الجمود . هذا اولا.

---

**(١) المختارات ٢/٢ ص ١١١ تنبيه اخير ( سنة ١٩١٨ ) .**
**(٢) المختارات ١/٢ ص ٢٠١ حق الامم في تقرير مصيرها ( سنة ١٩١٤ )**
**(٣) المختارات ١/١ ص ٤٠٠ خطوة الى الامام ... ( سنة ١٩٠٤ )**
**(٤) المختارات ٢/٣ ص ١٦٢ .. مرة اخرى عن النقابات ( سنة ١٩٢١ )**

ثانيا ، يتطلب المنطق الديالكتيكي **أخذ الشيء في تطوره ، في «الحركته الذاتية »** ( كما يقول هيجل أحيانا ) في تغيره . ان هذا غير مفهوم من الوهلة الاولى فيما يخص الكأس ولكن الكأس ايضا لا تبقى دون تغير . بل يتغير على الاخص القصد من الكأس ، استعمالها ، صلتها مع العالم المحيط » .

ويضيف: «ثالثا **ينبغي أن تدخل الممارسة الانسانية كلها في** تعريف الشيء تعريفا كليا سواء امن حيث انها مقياس الحقيقية ام من حيث أنها معرف عملي لصلة الشيء مع ما يحتاجه الانسان. رابعا ، يعلم المنطق الديالكتيكي انه « **لا وجود للحقيقة المجردة ، فالحقيقة دائما ملموسة ... » (١)** .

★★★★

ما هو المطلوب من العالم ؟ تحليل الواقع الملموس ، بطريقة ملموسة ، لا تطبيق قانون عام على حالة خاصة . المطلوب تحليل الوقائع ، كل الوقائع ، وكل الظروف ، في اطارها التاريخي ، أي ملاحظة نسبتها ، وبالتالي تتبع منحى تطورها .

ان تحليل الواقع الملموس ، هو نفسه المنطق الجدلي ، هذا المنطق الذي يفترض التطور المحسوس ، يفترض دراسة الجدل الواقعي ، لا العقلي . الجدل الوجودي ، المادي . جدل الشيء وحركته الذاتية ، جدل الاضداد ، وعلى وجه الخصوص جدل العام والخاص (٢) وهو ما يهمنا ها هنا أولا ، وهو ما تستثيره قضية تحليل الواقع لانشاء العلم ، فلنضرب بعض الامثلة التي ذكرها لينين ، للابانة عن هذه العلاقة الجدلية الهامة ، والتي تنسف في عملية القولبة الدوغمائية .

---

**(١) المختارات ٣/٢ص ١٦٦ مرة اخرى عن النقابات**

**(٢) راجع ماركس ــ انجلز ــ الماركسية ص ٣٨٦ حول الديالكتيك (سنة ١٩١٥)**

**كتب لينين :**

« وهكذا يمكن ( ويجب ) ان نستشف في كل جملة ، كما نستشف في نخروب ( خلية ) أجنة جميع عناصر الديالكتيك ، لكي نبين ان الديالكتيك ، بوجه عام، هو من طبيعة كل معرفة انسانية . والحال، ان العلوم الطبيعية تبين لنا ( وهذه المرة ايضا ، ينبغي تقديم الدليل على ذلك بأي مثال بسيط جدا ) الطبيعة الموضوعية بنفس صفاتها، **وتحول الخاص الى عام ، والطارىء الى ضروري ، والدرجات الانتقالية ، والتنوعات ، والصلة المتبادلة بين الاضداد .** ان الديالكتيك هو حقا نظرية المعرفة ( عند هيغل ) وعند الماركسية : ان هذا الجانب من الاشياء ( وهو ليس « جانبا » انما هو جوهر الاشياء) قد اهمله بليخانوف ، فضلا عن الماركسيين الاخرين » (١) .

وكتب ضد كاوتسكي :

« ان كاوتسكي يتخلص ، كما هو شانه ، حسب الصيغة الشهيرة : من جهة لا بد من الاعتراف ، ومن جهة أخرى يجب الاعتراف . انه يضع جانبا الى جنب مختلف الحلول دون أن يفكر بالمسألة الواقعية الوحيدة ، الماركسية الوحيدة ، مسألة معرفة مراحل الانتقال من الراسمالية الى الشيوعية في هذه الاوضاع **الخاصة أو تلك » (٢) .**

وكتب عن الانتخاب :

« .. واليوم يجدر القول ان قضية تقييد حق الانتخاب **قضية خاصة بهذه الامة** او تلك ، قضية عامة للديكتاتورية . فلدراسة قضية تقييد الحق الانتخابي ينبغي بحث الظروف الخاصة بالثورة الروسية ، المجرى الخاص لتطورها .. » (٣)

---

**(١) المرجع السابق ص ٣٩٠.**

**(٢) المختارات ٣/١ ص ١٧٤ الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي ١٩١٨**

**(٣) المختارات ٣/١ ص ١١٥ الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي**

وكتـــب عن العنف :

« .. ولذا ، فان من يتحدث عن « العنف » بوجه عام ، دون أن يرى بوضوح الى الاحوال والشروط التي تميز بين العنف الرجعـــي والعنف الثوري ، انما يعطي الدليل على انه تافه ضيق الافق يتخلى عن الثورة .. » (١)

وكتب ايضا :

« ايها الرفاق ، طبيعي تماما ان يترتب علينا ، في مجرى تطـــور الثورة البروليتارية ان نضع في المنزلة الاولى ، **طورا هذه القضية ، وطورا تلك** ، من بين اهم قضايا الحياة الاجتماعية واكثرها تعقيدا .. واذا كان يترتب علينا الان ان نتوقف عند مسألة النشاط في الريف وان ننظر **نظرة خاصة** منفردة الى وضع جماهير الفلاحين المتوسطين. فلا يمكن ان يكون في الامر اي طابع غريب أو غير طبيعي من حيـــث تطور الثورة البروليتارية بوجه عام » (٢) .

وكتب أيضا :

« .. ينبغي لكم ان تستندوا في الميدانين النظري والعملي على التعاليم الشيوعية العامة ، وان **تأخذوا بعين الاعتبار الظـــروف الخاصة غير الموجودة** في البلدان الاوروبية كي يصبح بامكانكم تطبيق هذه التعاليم في الميدانين النظري والعملي في ظروف يؤلف فيـــها الفلاحون الجمهور الرئيسي وتطرح فيها مهمة النضال لا ضد رأس المال ، بل ضد بقايا القرون الوسطى .. » (٣) .

وكتب ايضا عن النضال :

« القضية كلها الان في ان على الشيوعيين في كل بلاد أن يأخذوا

---

**(١) المختارات ٣/١ ص ١٥٠ الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي**
**(٢) المختارات ٣/١ ص ٢٥٥ المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي ١٩١٩**
**(٣) المختارات ٣/١ ص ٤١٠ المؤتمر الثاني للمنظمات الشيوعية لشعوب الشرق ١٩١٩**

بالحسبان بمنتهى الوعي - المهام المبدئية الاساسية للنضال ضد الانتهازية والعقائدية « اليسارية » وان يأخذوا بالحسبان كذلك الخصائص الملموسة التي يتخذها هذا النضال والتي يجب ان يتخذها في كل بلد على حده ، **تبعا للخصائص المميزة التي تسم اقتصادها** وسياستها وثقافتها وتركيبها القومي ( ارلنده وغيرها ) ومستعمراتها وتقسيماتها الدينية ، وهلم جرا والخ .. »

واضاف كاتبا عن القيادة العامة للثورة :

« ان من الضروري أن ندرك بجلاء ان مثل هذا المقر القيادي لا يمكن **بأية حال أن نوجده على أساس قولبة القواعد التاكتيكية للنضال وتسويتها وتوحيدها بصورة ميكانيكية . فما دامت الفوارق من حيث القوميات والدول موجودة بين الشعوب والبلدان ، وهذه الفوارق ستبقى زمنا طويلا وطويلا جدا** . حتى بعد تحقق ديكتاتورية البروليتاريا في النطاق العالمي ، **فان وحدة التاكتيك العالمي لحركة العمال الشيوعية في جميع البلدان لا تتطلب ازالة التنوع ، ولا استئصال الفوارق القومية (الامر الذي ليس في اللحظة الراهنة الا اضغاث احلام )** بل تتطلب تطبيق المبادىء الاساسية للشيوعية ( السلطة السوفياتية وديكتاتورية البروليتاريا ) **بشكل يعدل بصورة صحيحة هذه المبادىء في الجزئيات ، ويجعلها تتلاءم وتنسجم بصورة صحيحة مع الفوارق القومية والفوارق بين الدول ... » (١)**

وكتب ضد يونيوس ، مبينا خطاه :

« ومكان الخطا هو المغالاة بهذه الحقيقة ( شبح الحرب الوطنية ) **والانحراف عن الماركسية فيما يتعلق بمطالبتها بمراعاة ظروف الزمان والمكان ... »**

« ان وجه الخطا في هذه الحجة واضح كل الوضوح . وغني عن القول ان المبدأ الاساسي في الديالكتيك الماركسي **يتلخص في كون جميع الحدود في الطبيعة وفي المجتمع هي اصطلاحية ومتحركة ،**

---

**(١) المختارات ٢/١ ص ٥٤٨ مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية ١٩٢٠.**

**وانه لا توجد ظاهرة من الظاهرات ، الا ويمكنها اذا توافرت ظروف معينة ، ان تنقلب الى ضدها** . فالحرب الوطنية يمكن ان تتحول الى امبريالية وبالعكس .

« ... **غير اننا نبقى ديالكتيكيين** اذا ناضلنا ضد السفسطات ، لا عن طريق انكار احتمال كل تحول بوجه عام ، **بل عن طريق تحليل الظاهرة في ظروفها المعينة وفي تطورها تحليلا ملموسا .. » (١)**

ونقد سوفارين فقال :

« غير ان المفاهيم العامة والمجردة كمفهوم « اللاوطنية » هي مفاهيم لا قيمة لها البتة من وجهة نظر الماركسية . **ان الوطن والامة هما طوران تاريخيان »** (٢) الخ .. الخ ..

ونتيجة لذلك ، نتيجة للتحليل الملموس للواقع ، وللابتعاد عن المجرد والعام ، ونتيجة لدراسة الحالات الخاصة في وضعها التاريخي ، توصل لينين الى اطروحات جديدة غدت كأنها هي الاسس الثابتة اللينينية ، ونسي ( بضم النون ) الاساس الحقيقي ، وفي ذلك طعن لافكار لينين واسسه . لقد غدت الاطروحات الجديدة ، بمثابة العام ، المجرد الذي حاربه دائما ، اما الاساس الحقيقي — المنهجي — فقد انزوى — ككلمة — على الهامش للدلالة على مرونة الماركسية واللينينية ! وبذلك رجعت هذه « الماركسية » لتكون كما كانت ايام « كاوتسكي » عقيدة جامدة ، وقانون ايمان . واصبح المنظر للواقع الملموس بطريقة ملموسة ، للواقع الخاص ، والمكتشف للجديد ، كافرا وتحريفيا يستحق اللعنة ! فهو ويا للعجب ، يرفض القولبة ، والقسر الميكانيكي ، ويريد جعل الماركسية في العلم منهجا ، ومرشدا للعمل ، يريد جعل الماركسية عملا مستمرا ، وبحثا متتابعا ، لا شعارات ، ونداءات وقوانين الهية !

---

**(١) مجموعة : حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية ص ٢٥٧ حول كراسة يونيوس ( ١٩١٦ ) دار التقدم — موسكو**

**(٢) المرجع السابق : ص ٢٩١ كتاب مفتوح الى سوفارين ١٩١٦**

لقد التزم لينين بالواقع ، بالخاص ، ولم يجد رهبة بأن يقول ان تلك القضية الماركسية المعروفة لا تنطبق على بلده ، او ان التطور قد تعداها ، على حين كان خصومه لا يزالون عند الكلمات، لا يرون الواقع ، ولا يريدون رؤيته ، بل يريدون قسر الواقع على النزول بالقالب الجاهز . ورد لينين بان العلاقة بين المطلقوالنسبي علاقة نسبية ايضا . من هنا اتسام حركات لينين واقواله بالمرونة ، وبمعنى اخر اتسامها بالجدل ، اي اعتبار الواقع هو الاساس ، فيتبدل التحليل بتبدل الواقع ، وبالتالي يتبدل التاكتيك بتبدل التحليل . وبالقضية الاولى ننشىء العلم النامي والمتطور ، وهو ما بيناه اعلاه ، وبالقضية الثانية نصنع الفلسفة كتخطيط يبدل الواقع باتجاه الهدف العام ، وهو ما سنعالجه بعد حين .

★★★★

اذن يجب ان ندرس الواقع الخاص وان نحلله بطريقة ملموسة، لكن ماذا ندرس ؟ الشائع في الماركسية ، ان ما يجب دراسته هو الاقتصاد. الم يدرس ماركس الاقتصاد في راس المال ؟ **نعم درس ماركس الاقتصاد ولكن لينقده كحالةشاذة تتانس فيه البضاعة ويتشيأ فيه الانسان . ولم يدرسه كمطلق ، كخالق يفسر كل شيء .**

وقد مر معنا قول لينين اننا يجب **ان ندرس كل شيء ، جميع العلاقات جميع العوامل** ، وان ندرسها في حركتها . اذن القضية **ليست تحليلا للواقع الاقتصادي فحسب** ، كما يشاء بعضهم . لقد هاجم لينين هذه النزعة الاقتصاديةعامة، وقليلا ما حلل وفسر الامور بالاقتصاد وحده . (١) ولكن مثل هذا الكلام العام لا يكفي ، لذا يجب أن ننتقل الى التفاصيل . نعم يجب ان نحلل الواقع ، ولكن اي واقع ؟ وماذا يوجد في الواقع ، الواقع الاجتماعي الملموس ؟

---

**(١) مثال على نزعته الاقتصادية القليلة تفسيره لانحرافات الاشتراكيين في اوروبا بالواقع الاقتصادي لا باخطاء الاشخاص او الخصائص او التقاليد القومية .. الخ : راجع ماركس — انجلز — الماركسية ص ٣٢٨**

يبدو السؤال بسيطا وسطحيا . وماذا يمكن ان يوجد في الواقع الا الواقــع ! ولكــن مــا يــبدو بسيطـا يغفــل ( بضــم اليــاء ) ، لــذا يبــدو اساسيــا لعمقــه ، وبسبب الاخطاء المرتكبة ، لا في العلوم الاجتماعية المعقدة فحسب. بل وفي العلوم الطبيعية ، ومن هنا دخول المثالية الى المعامل ، لتخرج نظرية علمية مزيفة مسربلة بأثواب الكهنوت ، ودعك من الاثــواب الذاتية ، على هذا النحو اكتشف نيوتن الله في نظريته العلمــية ، واكتشف سواه مبدأ الحياة المطلق ومبدأ الغائية .. الخ .. الــخ فما بالك بالعلوم الاجتماعية ؟!

وليس كافيا أن نقول بالموضوعية وبالنزاهة ، ليس كافيا ان نطالب العالم بترك افكاره على أبواب معمله ، لان المصالح تندس بالقوة عبر كل كلمة ، لتخرج الينا قائلة بأن الموضوعية تريــد هذا ، مثلما كانت المصالح تخرج في القديم قائلة بأن الله يريد هذا .

وقــد يقول القارىء ، ان هذا مفيد للحــذر من احابيل المثالية ومصالح الطبقة المستبدة التي تتستر بالنظريات العلمية ما دامــت « الموضة » الان الثقة المطلقة بكل ما هو علمي . وهذا درس قديم، فما الفائدة من ادخاله في هذا البحث عن اللينينية ؟ بيد أن الفائدة أعظم ونحن نبحث في اللينينية وفي الماركسية ، ما دام السائد عنهما لوحة مشوهة ترد كل شيء الى الواقع الملموس لفظا ، ثم ترد كل الواقع الى الانتاج الاقتصادي . الا يحق عندها أن لا نتقبل سطحية السؤال ــ ما الواقــع ؟ ــ لنحدده كما حدده لينين ، كبديل لتلــك اللوحة المشوهة . من دون أن ننسى ان احد **خلافات لينــين مــع** خصومه ، انما يرتد **للاختلاف على تحليل الواقع .**

ان الخطأ الاول الذي يقع فيه الباحث ، هو حصرنفسه في حيز ضيق معتبرا اياه ممثلا لكل الواقع ، وتجاه هذا الخطأ ، يؤكد لينين على النظرة الشمولية التي تبحث في كل مكونات الواقع وفي كــل عناصــره .

والخطأ الثاني الذي يقع فيه الباحث . هو عدم ادراكه لحركة الواقع ، فيبحث فيه كشيء ثابت ، من دون ان ينتبه الى التغيرات، التي يمكن أن تقلب النتائــج ، فتجعل ما هــو هامشي اساسيا ، وتجعل ما هو اساسي عرضيا . ومقابل هذا الخطأ يؤكد لينــين

على النظرة الجدلية التي تبحث في الحركات الذاتية للواقع ضمن اطار تاريخي . فالواقع دائما هو الواقع التاريخي المحدود زمنا ومكانا .

الخطأ الثالث . هو عدم ادراك تمايز الواقع عن سواه وتفرده واصالته بما هو تاريخي . مما يؤدي الى التساهل في البحث ، ورؤية التشابه فقط ، وبالتالي سحب النظريات العامة على كل مكان وزمان ، مع احتياط شكلي عن مرونة النظرية العامة . وضد هذا الخطأ يؤكد لينين على اصالة الواقع تاريخيا وبذلك ينسف قضية « بعض الخصائص المميزة » ضمن النظرية العامة والتي لا تلغي النظرية بل تعدل ذاك القسم الجزئي وتلك الفقرة الهامشية. ينسف هذا ليؤكد على ان الاساس هو الخاص ، لا العام .

الخطأ الرابع ، هو ان الباحث يأخذ كل تلك الامور بعين الاعتبار، فيصل الى نظرية عامة ، ويحسب انه وصل الى الكمال ، وينسى ان الواقع يتبدل ولا يتوقف ، ولذا فان البحث يجب ان يستمر في الواقع لدراسة التبدلات الجديدة وللخروج بنظرية اخرى ، ثم اخرى . من هنا نفهم ديالكتيك لينين العملي الذي مرده متابعة تحليل الواقع بصورة مستمرة من دون توقف والذي يساء فهمه، فيسمى بالمرونة ( بمعنى التذبذب ) تارة . ويسمى بالحنكة السياسية ( بمعنى المكر ) تارة اخرى ، على حساب المبادىء !

هذا كله نجده في النصوص السابقة مكررا ، ونجده في كل نصوص لينين ، اذ من دون هذا المنهج ، لا يبقى للينينية اي مضمون مميز. مع ذلك سنختار نصوصا اخرى تؤكد هذا عبر بحثنا عن النظرة الشاملة للواقع . ماذا يشمل الواقع الملموس ؟

يشمل الواقع ، وجودا ماديا واقتصاديا من عمل الانسان ، وجودا اجتماعيا تاريخيا يتبدل بحسب جدلية الاقتصاد ( المادة عموما ) والسياسة ، بحسب جدلية البشر مع الوجود . فالواقع يشمل اذن الوجود المادي والجماعات ( صراع الطبقات ) والمبادىء ( الايديولوجيات المتصارعة ) وبواقي ( رواسب ) التراث الانساني. وبكلمة موجزة : **يشمل الواقع ، الوجود المادي بما فيه الوجود المادي للبشر ، والمبادىء والاهداف المختلفة ، وبينها العمل الانساني**

او الممارسة الانسانية ، **يشملهم في جدلية تاريخية ، يكون بها التاريخ ويكون بها التقدم** . فأين يقف لينين من كل هذا ؟

في بحثه عن ماركس يبرز لينين أطروحة العمل وبالتالي صراع الطبقات وأطروحة علاقات الانتاج . يقول : «واذا كانت المادة، بوجه عام ، تفسر الوعي بالكائن ، وليس بالعكس ، فهي تتطلب عند تطبيقها على الحياة الاجتماعية للانسانية ، تفسير الوعي الاجتماعي بالكائن الاجتماعي . يقول ماركس : ان التكنولوجية تبرز اسلوب عمل الانسان تجاه الطبيعة ، اي العملية المباشرة لانتاج حياته ، وبالتالي ، الظروف الاجتماعية لحياته والافكار ، والمفاهيم الفكرية التي تنجم عن هذه الظروف . » ويقول أيضا : « ان الناس ، أثناء الانتاج الاجتماعي لحياتهم، يقيمون فيما بينهم علاقات معينةضرورية، مستقلة عن ارادتهم . وتطابق علاقات الانتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية » .

ويضيف لينين الى ذلك قوله شارحا : « ومجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع ، اي الاساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقي وسياسي ، وتطابقه اشكال معينة من الوعي الاجتماعي . ان اسلوب انتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعي والسياسي والفكري ، بصورة عامة . فليس ادراك الناس هو الذي يعين معيشتهم بل على العكس من ذلك معيشتهم الاجتماعية هي التي تعين ادراكهم . وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها ، تدخل في تناقضمع علاقات الانتاج الموجودة او مع علاقات الملكية .. وعندئذ ينفتح عهد الثورة الاجتماعية . ومع تغير الاساس الاقتصادي يحدث انقلاب في كل البناء الفوقي الهائل . » (١)

ويعتبر لينين هاتين الاطروحتين ( علاقات الانتاج ، والعمل ) تصحيحا لعيبين رئيسيين في النظريات التاريخية السابقة . قال : « أولا : لم تكن هذه النظريات تأخذ بعين الاعتبار ، في احسن الحالات

---

(١) المختارات ١/١ ص ٤٠ بحث كارل ماركس كتب سنة ١٩١٤

غير الدوافع الفكرية لنشاط الناس التاريخي ، دون أن تبحث عما يولد هذه الدوافع ، دون ان تدرك القوانين الموضوعية التي تسير تطور نظام العلاقات الاجتماعية ، دون أن ترى جذور هذه العلاقات في درجة تطور الانتاج المادي . ثانيا : كانـت النظريات السابقـة تهمل . على وجه الضبط . عمل جماهير السكان بينما مكنت المادية التاريخية ، لاول مرة، من دراسة الظروف الاجتماعية لحياة الجماهير، ومن دراسة تغيرات هذه الظروف بدقة العلوم الطبيعية . (١)

وتحت مثل هذا البحث النظري البحت ، نص لينين على الموقف الاحـادي فحسـب ، على الرغـم من تأكيـده علـى العمـل ، فلهجته القطعية التالية ، تجعل كل الامور ثانوية ، أما الاسـاس فهو الانتاج والانتاج فحسب . « لقد شقت الماركسية الطريق أمام دراسة واسعة شاملة لعملية نشوء تشكيلات المجتمع الاقتصادية وتطورها وانهيارها ، **وذلك بتحليلها مجموعة الميول المتناقضة وردها الى ظروف المعيشة والانتاج ،** الواضحة المعالم ، لمختلف طبقـات المجتمع ، وبابعادها اختيار الافكار القائدة او تأويلها على نحو ذاتي واعتباطي ، **وبكشفها عن جذور جميع الافكار ، وجميع الميول المتباينة في أوضـاع القـوى المنتجة المادية دون استثناء ...** » (٢)

ونتيجة لظروف الانتاج ينشأ النضال الطبقي . وينقل عن البيان الشيوعي أن تاريخ كل مجتمع الى يومنا هذا ( ثم يضيف انجلز فيما بعد : ما عدا المشاعة الابتدائية ) لم يكن سوى تاريخ نضال بـين الطبقات ... » (٣)

وهذا ما سعيت الى دحضه في الفصول السابقة عن الماركسية وباسم راس المال . فهل اللينينية تقف على هذه العتبة من البدايـة الى النهاية ؟ وهل هي هذه « الماركسية السطحية » التـي تـرد كل الامور الى الانتاج والانتاج فحسب ؟

---

(١) المرجع السابق ص ٤١
(٢) المختارات ١/١ ص ٤١
(٣) المرجع السابق ص ٤٢

لا ، لم يقف لينين ، عند هذا الحد ، لانه تشبع بالجدل ، ولانه ادرك بانه مع مثل هذه السطحية نقصي اهم جدل في الوجود . وهو جدل البشر مع الانتاج والمادة . من هنا سنجده يقف من داخل الجدل ليعارض هذا الابتذال ، وليرى الواقع بشموليته ، والجدل باطرافه.

من هنا تقتضي ضرورة البحث ، ان ننتقل مع لينين الى قضايا الواقع لنبحث عن الواقع . وبذلك ننتقل الى التحليل الملموس للواقع الملموس ، لتعيين عناصره ، بدل ذاك التعيين المجرد .

جابه لينين الماركسية وقد غدت قانون ايمان ينص على ان الانتاج هو الاساس ( كما هو الامر اعلاه ) وهو الذي يصنع التطور ، فاذا ما وصل الانتاج الى مرحلة الراسمالية ولد بصورة حتمية نتيجة لتناقضات هذه المرحلة ، ولد الثورة الاشتراكية . على هذا الاساس يضع الاشتراكيون أهدافهم مطالبين بالاصلاحات الاقتصادية فحسب ، بانتظار وصول الانتاج الى تلك المرحلة ، اذ تلقائيا سيتولد العمل السياسي والوعي السياسي والثورة . اما قبل ذلك فالامر غير جائز ، ولا فائدة منه .

يقف لينين ضد كل هذا التشويه ، ويسميه بالنزعة الاقتصادية . « فان الطبقة العاملة اذا ما حصرت نفسها في النضال الاقتصادي فقدت استقلالها السياسي وسارت في ذيل الاحزاب الاخرى وخانت تلك الوصية الكبيرة القائلة : ان تحرير العمال يجب ان يكون من صنع العمال انفسهم » (١) .

والسبب في هذه النزعة الاقتصادية يرتد الى اعتقاد اصحابها بأن « السياسة تسير دائما بطواعية ( في نص اخر بخنوع ) خلف الاقتصاد » و (( **هذا غير صحيح بتاتا** )) و « وقد كان هذا تحطيما تاما للوعي من قبل العفوية » (٢) عفوية أولئك الذين يرون « ان السياسة هي بناء فوقي ولذلك ينبغي للتحريض السياسي أن يكون

---

**(١) المختارات ١/١ ص ١٤٨ المهمات الملحة لحركتنا (١٩٠٠)**
**(٢) المختارات ١/١ ص ١٩٢ و ١٩٩ ما العمل (١٩٠٢)**

بناء فوقيا للتحريض على النضال الاقتصادي ، ينبغي أن ينمو على صعيد هذا النضال وان يسير في اثره » (١) .

وبكلمة أخرى : « لقد تعلم الاقتصاديون عن ظهر قلب ان السياسة اساسها الاقتصاد . وفهموا هذا بمعنى انه يجب الهبوط بالنضال السياسي الى مستوى النضال الاقتصادي » (٢) .

وبكلمة ثالثة : « ان السياسة هي بناء فوقي ولذلك ينبغي للتحريض السياسي ان يكون بناء فوقيا للتحريض على النضال الاقتصادي . ينبغي ان ينمو على صعيد هذا النضال وان يسير في اثره » (٣) .

وفي الواقع يجابه هذا التفسير الآلي للماركسية اشكالا يعجز عن حله : هل يجب أن ننتظر تأزم الراسمالية لنصنع الثورة ؟ هل هذا التأزم سيصنع حتما الثورة على ما يقال ؟ ماذا نفعل اذا لم يصل الانتاج الى تلك المرحلة ؟ وماذا اذا ظل ذاك الحتم امكانا في طي الزمن ؟

ان ما يجب أن يقال هو : لنذهب الى بيوتنا ، ما دام الانتاج هو الصانع . والخالق للثورة . الم يقل هؤلاء الاقتصاديون « ان جميع جهود النظريين الاكثر الهاما لا يمكنها ان تخرج حركة العمال عن الطريق الذي حدده لها تفاعل العناصر المادية والبيئة المادية » . بيد أن لينين يضيف بعد أن يعرض رأيهم : ان هذه العبارة « **تعادل تماما التخلي عن الاشتراكية ..** » (٤)

قلت : لنذهب الى بيوتنا ، وقال لينين ما هو أكثر شاعرية ، واكثر سخرية : « **ما دام الماركسيون يعتبرون الرأسمالية في روسيا أمرا**

---

**(١) المختارات ١/١ ص ٢٠١ ما العمل (٢) المختارات ١/٢ ص ١١٦ خطتنا الاشتراكية ( ١٩٠٥ )**

**(٣) المختارات ١/١ ص ٢٠١ ما العمل (٤) المرجع السابق ١٩٦**

**محتوما وتقدميا فينبغي عليهم أن يفتحوا خمارة وينصرفوا الى غرس الراسمالية » (١)** • وهذا ما تؤدي اليه تلك النظرية عن الحتمية !

**اين موضع الخطأ ؟**

حل لينين الاشكال السابق بتبيان العلاقة بين الواقع المادي والهدف الانساني ، بين العلم والفلسفة ، بتبيان ديالكتيك الانسان مع الوجود ، جدل الافكار والعمل مع الواقع المادي ( والاقتصادي ) .

هل الاقتصاد « صانع » و « خالق » الثورة ؟ هل تأزم الوضع يؤدي الى حتمية لا مفر منها ؟ ان ناقدي الاشتراكية يتبجحون وهم ينقدون الماركسية صارخين بفرح : لم تقم الثورة ، ولم تصدق تلك الحتمية ، فالماركسية مذهب خاطىء . وهم في الحقيقة لا ينقدون الماركسية ، بل ينقدون هذا التشويه الذي أصابها . اما الماركسية فقد وضحها لينين عندما بت في القضية ذاهبا الى ان الوضع المادي لا ينشىء تطورا ولا يصنع ثورة ، بل ينشىء العفوية . ذلك ان الماركسية لم تستبدل خالقا من القيم بخالق من تراب ، بل جعلت الثورة نتاجا لجدل الانسان مع الوجود ، لجدل الطبقة المظلومة ، وقد وعت وتنظمت وحددت أهدافها بما يتناسب مع معطيات الاقتصاد والوجود كله .

**الاقتصاد ، المادة .. تنتج العفوية ، تنتج الفوضوية ، تنتج الاقتصادية ، ولا تنتج الثورة** ، لذا فنقد أعداء الماركسية ساقط سلفا . ان تأزم تناقضات الراسمالية ولدت العفوية ، وولدت الفوضوية .. وولدت الاصلاحية ، واذا كانت الثورة لم تلد ، فلان الوعي والتنظيم ، لم يصلا الى الدرجة الصانعة للثورة . ولان الوعي والتنظيم المضاد ، كان ماديا على نحو أعظم فبعثر وسحق العفوية . ومن هنا فالامل لا يزال معقودا ، على المضطهدين ليعوا ولينتظموا ، وليصنعوا ثورتهم .

كتب لينين **« لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية » (٢)** . وكتب أيضا « وبودنا فقط أن نشير هنا الى انه لا يستطيع القيام بدور مناضل

---

**(١) المختارات ١/٢ ص ٣٩٦ الامبريالية اعلى مراحل الاستعمار ١٩١٧**

**(٢) المختارات ١/١ ص ١٧٩ ما العمل سنة ١٩٠١**

الطليعة الا حزب يسترشد بنظرية الطليعة » (١) وكتب ايضا : « والواقع انه لم يشك احد حتى الان ، كما يبدو ، في **ان قوة الحركة المعاصرة تكمن في يقظة الجماهير** ( وبصورة رئيسية البروليتاريا الصناعية ) وفي أن ضعفها يكمن في عدم كفاية وعي ومبادرة القادة الثوريين » (٢) .

ما معنى هذا ؟ ان خصوم لينين يؤكدون على الوضع الراهن الخالق ويسجدون له . اما لينين ورفاقه فـ « على العكس ، غير راضين عن هذا السجود أمام العفوية اي امام ما هو كائن في الظرف الراهن » (٣) .

معنى ذلك ان الانتاج ليس خالقا للوعي ولا للثورة ، بل هو خالق للعفوية ( للاضرابات مثلا ) ، وان الاختلاف العام في جذره العميق يرتد **« الى الاختلاف في تقدير الاهمية النسبية للعنصر العفوي وللعنصر المنهجي الواعي » (٤) .**

ان الاضرابات شكل من اشكال العفوية ، والعفوية « شكل جنيني للوعي » ولذا لا يمكن اعتبار تلك الاضرابات التي حصلت اضرابات اشتراكية لان العمال لم يعوا بعد التضاد بين مصالحهم والنظام . « قلنا ان الوعي الاشتراكي ـــ الديموقراطي ( الشيوعي فيما بعد ) لا يمكن ان يوجد آنئذ لدى العمال ، **اذ انه لا يمكن للعمال أن يحصلوا على هذا الوعي الا من خارجهم** . ولنا في تاريخ جميع البلدان شاهد على ان الطبقة العاملة لا تستطيع أن تكتسب بقواها الخاصة غير الوعي التريديونيوني اي الاقتناع بضرورة الانتظام في نقابات والنضال ضد اصحاب الاعمال ومطالبة الحكومة باصدار هذا او تلك من القوانين الضرورية للعمال ، الخ .. **اما التعاليم الاشتراكية فقد انبثقت عن النظريات الفلسفية والتاريخية**

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٠.
(٢) المرجع السابق ص ١٨٣
(٣) المرجع السابق ص ١٧٦
(٤) المرجع السابق ص ١٨٤

**والاقتصادية التي وضعها المتعلمون من ممثلي الطبقات المالكة ، وضعها المثقفون . » (١)**

الاختلاف بجوهره ، هل الانتاج يصنع الوعي ام لا ؟ فاذا كان الامر كذلك ، صدق ما قاله الاقتصاديون ، وبالتالي علينا عندما نحلل الواقع الملموس ان نحلل الاقتصاد فحسب . واذا كان الامر غير ذلك ، علينا أن نحلل جميع عناصر الواقع ، بما فيها النظرية كقوة فعالة في الواقع ، تؤثر فيه ويتاثر فيها .

نقل لينين كلمات كاوتسكي ( قبل ان ينحرف ) ووصفها بأنهاكلمات هامة وعميقة في صدقها ، قال كاوتسكي :

**« يحسب كثيرون من نقادنا المحرفين ان ماركس قد اكد أن التطور الاقتصادي والنضال الطبقي لا يخلقان ظروف الانتاج الاشتراكي وحسب ، بل يخلقان مباشرة أيضا وعي (٠٠) ضرورته ... وعلى هذا الاساس يبدو الوعي الاشتراكي نتيجة مباشرة محتومة للنضال الطبقي البروليتاري. وهذا غير صحيح على الاطلاق.. انالاشتراكية والنضال الطبقي ينبثقان احدهما الى جانب الاخر ، لا احدهما من الاخر . انها ينبثقان من مقدمات مختلفة . فالوعي الاشتراكي الراهن لا يمكنه ان ينبثق الا على اساس معارف علمية عميقة .. وعلى ذلك كان الوعي الاشتراكي عنصرا يؤخذ من الخارج وينقل الى نضال البروليتاريا الطبقي ، لا شيئا ينبثق منه بصورة عفوية ..»(٢)**

من هنا يضع لينين **مهمة الوعي والتنظيم** كمهمة اولى ، مهمة الوعي السياسي والاقتصادي ومهمة تنظيم حزب ثوري يعمل لتحقيق اهدافه . هذا هو مضمون ما العمل او المسائل الملحةلحركتنا ومضمون المهمات الملحة لحركتنا . كتب : « ومن هنا تنبع تلك**المهمة** التي يترتب على الاشتراكية ــ الديموقراطية الروسية تحقيقها

---

**(١) المرجع السابق ص ١٨٦ ، ولا بد ان القارىء شعر بالتناقض بين هذا وما قلناه عن العام والخاص . وسوف نعالج هذا عند بحث الهدفية في الماركسية .**

**(٢) المرجع السابق ص ١٩٥**

وقوامها : **بث الافكار الاشتراكية والوعي السياسي في جمهور البروليتاريا وتنظيمحزب ثوري مرتبط أوثق الارتباط بالحركةالعمالية العفوية »** (١) .

اذن فالعفوية مخطئة ، لانها تنطلق من منطلق خاطىء . تنطلق من ان تحليل الواقع يعني تحليل الواقع الاقتصادي ، وبحسب هذا الواقع يحدد الاشتراكيون هدفهم ، وبالنتيجة يقعون في الاصلاحية وبالتالي يقعون تحت الايديولوجية البورجوازية .

الاقتصاد ليس العنصر الحاسم . لانه الى جانبه يقف الوعي اي الافكار . وبالتالي العمل او الممارسة . **ونؤكد يقفان بجانبه ولا ينبثقان عنه** . بل ويتقدمان عليه، وهو موضوعنقاش اخريفتتحه لينين هذه المرة ضد كاوتسكي وأتباعه في حديثهما عن روسيا التي لم تنضج بعد للثورة بسبب العامل الخلاق ، اي بسبب الاقتصاد الصانع للثورة ، وكان كاوتسكي نسي ما قاله أعلاه عن الانبثاق جنبا الى جنب ، لا الانبثاق من بعضهما بعضا ! وسنعالج ذلك بعد حين ، وذلك عندما نتحدث عن النظرية والهدفية . وفي الحقيقة ان ما عرضناه اعلاه عن الوعي يدخل في ذاك البحث ايضا ، ولكننا اردنا أن ننظر في الاقتصادية في حدودها النهائية بقضية ملموسة ، لنرى الى اين يقود تحليل الاقتصاد كممثل وحيد ترتد اليه كل عناصر الواقع .

ولا يعني هذا الاقلال من شأن العنصر المادي . والاكتفاء بالعنصر الذاتي . **بل يعني هذا رؤية شمولية للواقع للعنصرين الذاتي والموضوعي ، وعدم الغاء أحدهما ، وعدم رد احدهما للاخر . بل ويعني رؤية الجدل بين هذين العنصرين .**

يحلل لينين شروط الثورة ، ويبين ان هناك شرطين هما الموضوعي او ( الوضع الثوري ) والذاتي . وينص على ان التغيرات الموضوعية تنشأ ، ولكن مع ذلك لا تتولد الثورة الا اذا أضيف اليها التغير الذاتي .

---

(١) المختارات ١/١ ص ١٤٩ المهمات الملحة لحركتنا سنة ١٩٠٠ .

**كتـــب لينين :**

« لا بد .. لانتصـــار الثـــورة الاجتماعية مـــن شرطـــين على الاقل ، تطور كبير للقوى المنتجة واستعداد البروليتاريا » (١) .

وذكر لينين :

« ان الماركسي لا يشك مطلقا في ان الثورة مستحيلة دون وضع ثوري ، **ولكن ليس كل وضع ثوري يؤدي الى الثورة »** .

ويحدد دلائل الوضع الثوري بما يلي :

١ ــ نشوء ازمة في سياسة الطبقة السائدة تؤدي الى صـــدع يتدفق منه استياء الطبقات المستغلة وغضبها . اي انه يستحيل على الطبقة السائدة الاستمرار والاحتفاظ بسيادتها .

٢ ــ تفاقم بؤس الطبقات المضطهدة واشتداد شقائها .

٣ ــ تعاظم النشاط التاريخي للجماهير التي كانت مستسلمة للنهب بهدوء سواء بالنسبة لوضعها السيء أو لوضع الطبقة السائدة .

ويتابع :

« ودون هذه التغيرات الموضوعية المستقلة لا عن ارادة هـــذه الكتل والاحزاب او تلك وحسب ، بل ايضا عن ارادة هذه الطبقات او تلك ، تستحيل الثورة ، بوجه عام . »

بيد أن هذا الوضع الثوري « كان قائما ايضا في سنوات العقـــد السابع من القرن الماضي في المانيا ، وكذلك من ١٨٥٩ الى ١٨٦١ ومن ١٨٧٩ الى ١٨٨٠ في روسيا وان لم تقع ثورات في تلك الفترات . لماذا ؟ **لان الثورة لا تنشا عن كل وضع ثوري ، انما تنشا فقط اذا انضـــم الى جميـــع التغيرات الموضوعية المذكورة آنفا تغير ذاتي ،** واعني به **قدرة الطبقة الثورية على القيام باعمال ثورية جماهيرية قوية بحيث انها تحطم ( او تصدع )** الحكم القديم الذي لن « يسقط » ابدا حتى في فترة الازمات ، ان لم « يعمل على اسقاطه » (٢) .

---

**(١) مجموعة حول كومونة باريس : ص ٣٥ في ذكرى الكومونة دار التقدم ــ موسكو .**

**(٢) كراسة « افلاس الاممية الثانية » ص ١١ــ١٢ (١٩١٥) دار التقدم ــ موسكو .**

وكيف تتكون هذه القدرة الثورية ؟

تتكون ــ اولا ــ بالوعي ثم بالتنظيم الثوري . تتكون عندما تلتف الجماهير حول نظرية تجسد واقعها وتجسد امالها .

وتتكون ــ ثانيا ــ بالعمل الدؤوب لتحويل الآمال الى واقع ملموس ، بالعمل المثمر لذلك وتحطيم المستغلين .

العنصر الموضوعي هو المادة ، وهو الانتاج ، وهو الانسان بما هو مادة حية ، وهو المجتمع بما هو قوى تتصارع على شكل طبقات، طبقة تسرق عمل طبقة ، وهو الدولة بما هي أداة للطبقة المستغلة، (بكسر الغين) تستخدمها لقهر الطبقة المستغلة ( بفتح الغين ) ، ولاجبارها على بيع عملها وبيع حياتها .

**اما العنصر الذاتي فهو الافكار والعمل** . وقد كانت النظريات السابقة ترد التطور الى الافكار . فوقفت المادية لتعاكس هذا الاتجاه ، ولترى أن الافكار بحد ذاتها ما هي الا انعكاس للمادة ، وبالتالي فان التاريخ وحركته يرتدان الى المادة لا الى الافكار . وقد تأثر ماركس بهذا الاتجاه وحاول تعديله في كتاباته الاولى بكشفه عن الانسان الاجتماعي والتاريخي، لكن ما ساد في كتاباته الاولى ( البيان على سبيل المثال ) هو أن الانتاج هو القدر الجديد ، وقد تعدى ماركس هذا الاتجاه في « راس المال » بتثبيته الاجنة البدائية الاولى ، وبمحورة نظريته في راس المال حول العمل وما تسبقه من افكار واهداف . ثم يغيب هذا من جديد في تراث الماركسية فالارادة والافكار والعمل كلمات كافرة ولكن لتظهر من جديد ومع لينين أيضا، عبر تحليلاته للواقع الملموس وبذلك يستعيد الجدل وضعه الطبيعي. **فالجدل ليس جدل الطبيعة وحدها ، بل هو وبالاساس جدل الانسان مع الطبيعة . وما الواقع الا هذا الجدل بين الطبيعة والانسان وما تحليل الواقع الا تحليل هذا الجدل ، تحليل لجدل القوى المادية مع القوى الذاتية للبشر ( افكار ــ وعي ــ تنظيم ــ ارادة عمل ) .**

**كتب لينين عن الوعي :**

« ان حزبنا يساعدكم بكل ما في طاقته وقبل كل شيء بتوضيح

الوعي فيما يخص اختلاف اوضاع مختلف الطبقات واختلافقوتها. وهذا ما استهدفته قرارات مجلسنا العام . ودون هذا الوعي لا يعني التنظيم شيئا . ودون التنظيم يستحيل عمل الملايين .يستحيل احراز اي نجاح كان » (١) .

وكتب عن ارادات الاشخاص :

« **ان الماركسية تختلف عن جميع النظريات الاشتراكية الاخرى في كونها تؤالف بصورة رائعة بين الوضوح العلمي التام في تحليل الحالة الموضوعيةوالتطوير الموضوعيوبينالاعتراف الجازمالكليبدور الطاقة الثورية والابداع الثوري والمبادرة الثورية لدى الجماهير، وكذلك طبعا ، بدور الافراد ، والجماعات ، والمنظمات والاحزاب ،** الذين يعرفون كيف يكتشفون ويقيمون الصلة مع هذه الطبقات او تلك . » (٢)

وكتب عن جملة لماركس ما يلي :

« ان هذه الكلمات . تعبر عن موضوعة من اعمق واهم موضوعات النظرية الفلسفية التاريخية التي لا يريد ولا يستطيع اصحابنا الشعبيون ان يفهموها . **فبقدر ما يمتد ابداع الناس التاريخي ويزداد عمقا ، بقدر ما يجب ايضا ان تزداد هذه الكتلة من جمهور السكان التي هي صانعة واعية للتاريخ » (٣) .**

وعندما ذكر جملة ماركس بأن نظريته « من حيث جوهرها نظرية انتقادية . وثورية » كتب معلقا :

« لاحظوا ان ماركس يتحدث هنا عن الانتقاد المادي ، الانتقاد الوحيد الذي يعتبره علميا ، اي الانتقاد الذي يربط بين **الوقائع**

---

**(١) المختارات ٢/١ ص ١٨٥ تمهيد لقرارات المجلس العام السابع لعامة روسيا ( ١٩٠٧ )**

**(٢) مجموعة ماركس – انجلز – الماركسية ص ٢٨٣ « ضد المقاطعة » سنة١٩٠٧**

**(٣) المختارات ١/١ ص ٣٢ « اي ميراث نجحد » سنة ١٨٩٧**

**السياسية الحقوقية ، والاجتماعية والمعيشية الخ. وبين الاقتصاد،** ونظام علاقات الانتاج ، ومصالح الطبقات التي تتشكل بالضرورة في ميدان جميع العلاقات الاجتماعية التناحرية .. » (١)

وكلما مضينا قدما مع لينين تخفت تلك اللهجة النظرية البحتة عن الانتاج ويرتفع صوته مقدرا النظرة الشمولية ، ومقدرا دراسة جميع عناصر الواقع المؤلفة له ، اي العنصر الذاتي والعنصر الموضوعي. وان الامثلة على ذلك لا تعد . وعندما قامت الثورة نتيجة للتنظيم الجيد والوعي الثوري المتقدم من دون ان يكون الانتاج قد وصل الى المرحلة الراسمالية، صرخ اصحاب قانون الايمان : يجب ان لا تكون ثورة اشتراكية ، ورد لينين مسفها قانون الايمان وفهمه الميكانيكي . وبعد قيام الثورة كتب الكثير عن العامل الذاتي . فالناس هم العقدة، ولذا بذل جهدا بالغا ليحدد شروط الطليعة وقيمها ، مركزا على التنظيم والنظام والطاعة والمثابرة ، والتربية ، واعادة التربية والتثقيف . (٢) .. الخ .. ونكتفي بهذا المثال :

« والان اين العقدة ؟ ان هذه العقدة — وهذا ما اريد ان اسوق اليه تقريري واضح خلاصته — ان العقدة ليست في السياسة ، بمعنى تغيير الاتجاه ، وهذا ما يتحدثون عنه بكثرة لا تصدق . لمناسبة الاقتصادية الجديدة شرعوا يتحركون، ويعيدون بناء الدوائر، ويؤسسون الدوائر الجديدة . هذه ثرثرة ضارة للغاية. **لقد خلصنا الى أن عقدة الوضع في الناس ، في اختيار الناس ... »**

**« ... فالعقدة كلها الان ، الا تخشى الطليعة من العمل لرفع مستواها ، من اعادة تكوين نفسها ، من الاعتراف صراحة بنقص أعدادها ، بنقص مهارتها** . العقدة كلها اليوم ، أن تتقدم كتلة اكبر واقوى بما لا حد له ، ومع الفلاحين حتما ، مبينين لهم بالاعمال ،

---

(١) مجموعة ماركس — انجلز — الماركسية ص ١١٤ « من هم اصدقاء الشعب » ١٨٩٤ .

(٢) تراجع على سبيل المثال المختارات ٣/١ ص ٢٨٦ — ٣١٠ — ٣٠٨ — ٣١٢ — ٤٤٣ — ٤٧٠ — ٥١٤ — ٥٣٤ — ٥٣٥ . و٣/٢ ص ٣٩٦ — ٤٢١ — ٤٣٢ — ٤٤٥ ... الـــخ .

بالتطبيق ، بالتجربة ، اننا نتعلم وسنتعلم كيف نساعدهم ، وكيف نقودهم الى الامام . . . » (١)

لقد اطلت هذه الفقرة ، بسبب ما تثيره في الماركسية من ارتباك، نتيجة للاعتقاد النظري ، بأن كل شيء يرد الى الانتاج ، العامل الاساسي والحاسم . والذي يصبح عند دراسة الواقع علميادراسة للانتاج وحسب . ولذا كان لا بد من تتبع خط لينين بدلا من الاكتفاء بالاستشهاد التقريري عن المادية . ولدى هذا التتبع وجدنا لينين يقف ضد هذا التقرير ، ويستبدله بنظرة شاملة للواقع ابتداء من دراسة الوقائع الموضوعية المادية والاقتصادية الى دراسةالنسب في القوى المتصارعة ، الى الاهتمام بالنظرية والوعي والتنظيم ، الى التركيز على الاعمال لا الاقوال ، الى التأكيد على دور الثقافةوالعلم والافكار ، بل والمثل (٢) بل والتاكيد على دور الافراد وأمزجتهم وتصرفاتهم (٣) . . الخ . . وكل هذا يعني امرا واحدا ، هو كون الواقع يشمل كل هذا ، وبكلمة مختصرة يشمل العامل الموضوعي والعامل الذاتي ( الافكار — والعمل ) . ولذا فان تحليل الواقعيجب ان يشمل تحليلا لهذين العاملين بصورة شاملة .

قال لينين اخيرا ومنذ البدء :

« . . حين ان الماديين ( الماركسيين ) قد كانوا ، على العكس ، اوائل الاشتراكيين الذين تقدموا بمسالة ضرورة تحليل الحياة الاجتماعية بجميع مظاهرها ، لا فقط مظهرها الاقتصادي . » ونقل عن ماركس ما أكد قوله « ان ماركس قد تطلب صراحة عدمالاقتصار على المظهر الاقتصادي » . (٤)

---

(١) المختارات ٣/٢ ص ٢٨٦ و ٢٩٤ المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي سنة ١٩٢٢

(٢) راجع المختارات ٢/١ ص ٥٧٦ العدالة في هل يحتفظ البلاشفة بالسلطة ١٩١٧

(٣) راجع المختارات ٣/٢ احاديث لينين عن ستالين : فظ ، متسرع .. الـخ من ٢٩٦ — ٤٣٢ .. الـخ

(٤) كراسة من هم اصدقاء الشعب ص ٤٥ ( عام ١٨٩٤ ) .

وقد أكدنا على العامل الذاتي ، بسبب اهماله في الماركسية الرائجة وباسم الموضوعية ، وضد المثالية . **ونحن نفهم ان نحارب الافكار كامور قبلية وكصانعة للعالم وللوجود من حركتها . ولا نفهم كيف نحارب الافكار بما هي انسانية ، بما هي علم وأهداف يجادل بها الانسان الوجود عن طريق العمل ، فيبدل الوجود ، ويبدلها عبر ذلك الجدل . وكذلك لم يفهم لينين هذا ايضا ، لذا اكد على الوعي وعلى النظرية وعلى الاهداف .**

★★★★

خلاصة الامر ، ان الاساس الثاني للينينية هو دراسة الواقع الملموس بطريقة ملموسة . وبهذه الدراسة ننشىء علم الاجتماع الماركسي .

ان هذا العلم يكون عندما ننطلق من الماركسية كمرشد عمل يدلنا على أن الواقع متبدل زمنا ومكانا . ولذا يجب ان نجعل الواقع مرجعنا ، لا اية افكار مسبقة سواء اكانت أفكارا عامة مثالية أو علمية او ماركسية ، الواقع هو مرجعنا ، بما هو حالة متفردة ، اصلة ، زمنا ومكانا . الواقع هو مرجعنا ، بما يشمل من عناصر موضوعية وذاتية نسبية ومتبدلة .

ان معظم النقد الموجه ضد الماركسية ، انما ينطلق من مثل اعلى ( قولا ) شبيه بالمثل الاعلى الذي بينته عن العلم الماركسي . وبذلك فان هذا النقد لا يمس الماركسية الصحيحة ، بل يؤيدها ( قولا ) . وانما ميزة الماركسية الصحيحة انها تقول هذا المثل الاعلى وتحققه فعلا وعملا على حين أن أصحاب النقد غارقون في نقيضه تماما فعلا وعملا . ولذا فالعلم الراسمالي يسقط الاراء المسبقة في نظرياته ، ليبرر سرقة العمل وليبرر استغلال العامل والفلاح ، وليبرر استعماره للشعوب ، وليبرر حروبه التوسعية مزيدا شراهته وامتلاء جيوبه على حساب بؤس والم الكادحين في كل مكان .

ولنا في تحليلات لينين العلمية مثالا حيا على العلم الماركسي الصحيح الذي يحلل الواقع بشموليته وبحركته وبخصوصيته ، واذ

نضرب بعض الامثلة على ذلك، **نحذر من اعتبار تلك النتائج العلمية، بمثابة مبادىء عامة تصلح لكل زمان ومكان ، خاصة وانها لا تعين الحدود بين ما هو تحليل علمي وما هو هدف مرحلي فيها .**

ــ الامبريالية أعلى مراحل الاستعمار .

ــ القيام بالثورة نتيجة لتنظيم جيد ووعي قوي على الرغم من ان الظروف المحددة مسبقا لم تتحقق ــ لا ثورة اجتماعية خالصة .

ــ اتحاد العمال والفلاحين .

ــ حق الامم في تقرير مصيرها . يا ايتها الامم المظلومة اتحدي ضد الامبريالية الاستعمارية .

ــ راسمالية الدولة كخطوة نحو الاشتراكية .

ــ لا ضرورة للمرحلة الراسمالية .

ــ الضريبة العينية بدل المصادرة .

.. الـــخ .. الخ ..

والان لماذا لا يمكن اعتبار هذه النتائج اسسا او قوانين ثابتة ؟

ان الشائع هو ان هذه النتائج قوانين هذا العصر . اذ ما قيمة المنهج ( مرشد عمل ــ تحليل الواقع ) اذا لم نصل به الى قوانين ؟ وهذا حق ، على ان نفهم القوانين بالمعنى اللينيني المحدد بالمنهج . اي ان نفهمها كقوانين نسبية ، متبدلة لا كقوانين ثابتة ، في كــل زمان وفي كل مكان ، وهو ما ينحو نحوه الشائع . والحق يقال ، ان الشائع بدوغمائيته ، يرى الجدل ، لكن رؤية ضعيفة ومشوهة ، ولذا فهو ينص على القوانين الثابتة ، ثم يدخل عليها الجدل ، فيرى انها قوانين ثابتة ، في التاريخ ، ولكنها متبدلة لتبدل الظروف التي ولدتها ، ولــذا فان الغاء « الثوابــت » معناه الفوضى والعفوية . وهم يبدون الجدل ايضا عندما يؤكدون انه على الرغم من ان القوانين ثابتة ، فلا بأس ان عدل الوضع الخاص او الخصائص المميزة ، القانون ، هنا وهناك . ولكن المهم انه هناك ثوابت نركن اليها .

ان هذا الشائع يدعونا الى مناقشة عدة اخطاء مرتكبة ، وعدة

امور مختلطة ومتناقضة ، لنجعل موقفنا موقفا صحيحا .

هل جعل لينين نتائجه قوانين ثابتة ؟ لقد جعلها قوانين ، يمكن ان تلتغي لتظهر غيرها في اي لحظة في مجتمعه أولا ، ويمكن ان نكتشف سواها في اي مجتمع اخر . وكم من مرة عدل هو نفسه «قوانينه» .

**موقف لينين واضح : لا ثوابت .**

وقد يعترض علينا بنظرية انجلز عن مراحل تاريخ الانسانية ، والتي كررها لينين في بحثه عن الدولة ، الم يقل ان هذه المراحل تخص جميع البلدان دون استثناء ؟ » (١)

ان هذا الاعتراض ، وسواه ، يوضح التناقض في فكر لينين ، فكيف نخرج منه ؟ القاعدة المعروفة هي جمع كل ما قيل كحقائق منزلة ، فهي تشكل وحدة متماسكة . من هنا يمكن للمرء أن يستشهد بما يؤيد وجهة نظره مع اغفال ما لا يريد . وبذلك تتأسس النزعة التلفيقية . مثال ذلك يجب ان نؤكد على القوانين كأمور ثابتة حتمية وباسم العلم ، فاذا انتقلنا الى الحديث عن الديالكتيك اكدنا على التبدل والمرونة ، وهذا وذاك وسواهما وحدة لا ترتد ولا ترتعش !

وقد جابهنا في حديثنا عن ماركس امرا مشابها ، ورفضنا النزعة التلفيقية التي تجمع كل ما قاله ماركس في وحدة غير منسجمة ، تمحوره حول ما ذكره ماركس في البداية ، وحسمنا الموضوع بمحورة الماركسية حول آخر ما كتبه ماركس في راس المال ، اي حول علم العمل وفلسفته .

وقد اكدنا آنذاك ان الانسان يتبدل ويتطور ايضا ، وهذا جزء من الماركسية ، واذا كان الوقت لم يتيسر لماركس بأن يكمل مذهبه ، فلن نستطيع انشاءه بالجمع وبالتلفيق .

**كيف خرج لينين . . ؟** هل حاول التلفيق ؟ كان الواقع معياره ، لا القوانين الثابتة ، التي كان يسميها ساخرا ، ذات « الماركة المسجلة » .

---

(١) المختارات ٣/١ ص ٣٤٨ وما بعدها : الدولة سنة ١٩١٩ .

وكيف كان عمل لينين ؟ عمليا ، واقعيا ، على أرض الواقع ، التزم بتحليل الواقع ، لا بالمبدأ العام ، فهل ضاع ، وهل وصل الى الفوضى ، وهو يبدل القوانين ؟!

بيد أن من يحلل الواقع ملزم بنقد ما يقابله في المبدأ العام فقط ، لا بنقد كل المبدأ . من هنا نلمس اشكالية فعل لينين ، ومن هنا نفهم حديثه النظري عن المبدأ العام ، وتناقضه مع حديثه الواقعي عن القضايا الملموسة ، عندما يكرر اقواله عن مرشد العمل أو التحليل الملموس .. الخ .. بيد أن هذا الاشكال نفسه يرشدنا الى طريق الخروج من التناقض ، وطريق الخروج من التناقض هو ان نفهم جوهر اللينينية ، بالاستناد الى منعطفات لينين بالنسبة الى المبدأ العام ، بذلك نمحور تفكيره ، لا حول ما يكرره عن المبدأ العام ، بل حول مواقفه من الواقع الملموس . **أي ان نجعل أسس اللينينية ممحورة حول مواضيعه التي عالج فيها قضايا ملموسة في واقعه الملموس .**

هذا المحور لا يزيل التناقض ، بل يقره ، ليخرج منه لصالح الواقع ، وما يفعله «الدوغمائي» ، هو عكس هذا تماما ، اذ يمحور اللينينية حول المبدأ العام ، رافضا الاقرار بالتناقض ، مصرا على التلفيق . بيد أن اغماض العيون لا يجدي . فالتناقض يفقأ العيون . وقد خرج لينين من التناقض بالتزامه الواقع ، من دون أن يعبأ ان كان ما وصل اليه يطعن المبدأ العام ام لا . فطريقته مشبعة ، بل غارقة ، في ادراك الجدل ، وفي ادراك التبدل والتطور . لذا كرر وكرر الواقع والواقع ، الخاص والخاص . فما احرانا أن نلتزم بطريقته ونحن نعالج ما وصل اليه من قوانين او نتائج . **ما احرانا ان نقف موقفه من المبدأ العام الماركسي ونحن نعالج المبدأ العام اللينيني .**

اذن يجب أن نلتزم بالواقع وبالخاص ، وان نعتبر الماركسية واللينينية مرشد عمل لا قوانين ايمان ثابتة ، لا قوانين ثابتة . وهذه هي اللينينية .

هذا اولا .

وهذا يعني أن نتائج لينين قوانين نسبية ، لا قوانين ثابتة ، تصلح لكل زمان ولكل مكان من دون استثناء . وهي عرضة للتبدل

في مجتمع ، وفي مجتمع اخر قد نكتشف سواها . ويقرر ذلك العلم فقط وهو يحلل الواقع .

وما يطرح عن قضية التثبت من القانون ، وتعديل بعض اطرافه، هو عكس للمنهج ، اذ نقيس الخاص على العام ، والاساس هو استخلاص العام من الخاص ، بذلك لا يبقى القانون قانونا ، بل يصبح فرضا . الوجود متبدل ، فالقانون عنه متبدل ، ولا ثوابت . والمعيار هو الوجود ، الواقع ، وهو المرجع الاول والاخير . وهذا لا ينفي العلم ، بل يقره بوضعه الجدلي . فكما ان الواقع متبدل كذلك يجب أن تكون معرفتنا عنه ، وبقدر ما نكون واعين لتبدلات الواقع بقدر ما سوف نكون مالكين لهذا الواقع ومسيطرين عليه ، والا فسوف نكون مسيرين له ، خاضعين ، عفويين .

وهكذا تظهر لنا اشكالية القوانين العلمية ، بما هي نسبية ، والحل لا يكون بالصعود فوقها ، وبتجاهلها . بل يكون برؤيتها الرؤية الواضحة .

الواقع متبدل ، ونحن لا نستطيع نظريا أن نقرر ان هذا القانون يصلح لساعة او لسنة ، او لعصر ، حتى نقرر ذاك الثبات النسبي. الواقع هو الذي يقرر وحده ، والعالم هو وحده الذي يصف ، من خلال رصده للواقع . بذلك لا نستطيع الا ان نتابع رصد الواقع لكشف احتمالاته ، والتنبؤ بما سيكون ، وتحليل ما هو كائن .

**لذلك فالجدل ليس لعبة لفظية ، كلامية ، بل هو عمل دائب ، والا افلتت الامور من الثوريين. والثورة ليست كلمات، بل هي هذا الجهد الضخم الذي يبدأ برصد الواقع ، ومتابعة هذا الرصد ، ووضع الاهداف المناسبة** . واذا تتبعنا موقف لينين من ثورة شباط الى ثورة تشرين ، ادركنا قيمة ما يرشدنا اليه ، ادركنا قيمة الواقع ، ووضعنا الشعارات المتبدلة بسرعة هائلة في موقعها الصحيح (١)، وادركنا قيمة الوقت، اذ يصبح التباطؤ في العمل «اشبه بالموت» (٢). واذ تصبح الثورة متوقفة على يومين او ثلاثة (٣) . ادركنا ان

---

**(١و٢و٣)راجع المختارات ٢/١ حول الشعارات ص ٢٥٨ رسالة الى اعضاء اللجنة المركزية ص ٦٢٠ ونصائح غائب ص ٥٩١ .**

الوقت صعب ، والمهمة صعبة ، ولا يجوز استبدال المجرد بالمحسوس ، لان هذا خطا رئيسي ، ومن الاخطاء الاكثر خطرا على الثورة (١)

هنا نصل الى خطأ جديد ، يعكس عدة تصورات وهمية ، مستقاة من الفكر المثالي ، وهو الفكر الذي يتحدث عن الثوابت .

ان اصحابنا يريدون الثبات حتى تتبدل الظروف ، فكأن برنامجهم هو نفسه النظرية العلمية . وهذا يدل على خلطهم بين النظرية العلمية والنظرية الثورية ، خلطهم بين العلم والفلسفة ، ويرشد الى موقع الفلسفة عندهم كأم للعلوم ، أو كتعميم لها او كتصنيف، وبما أن الفلسفة والعلم اتحدا على هذا النحو ، أصبح من الضروري عندهم الثبات ، لان الفلسفة يجب أن تكون ثابتة ومطلقة .

العلم يدرس الواقع ، فنصل الى القانون العلمي ، وهذا القانون مشاع لكل الاطراف اليمينية واليسارية .. والماركسية بما هي فلسفة لا تعمم نظريات العلم ولا تصنف العلوم ، والا فانها لن تمتاز عن اية فلسفة اخرى . وانما امتيازها انها كفلسفة ذات اتجاه ، ذات هدف ، تتبنى بحسبه حقوق الانسان الحقيقية ، وهي تضع بحسب دراستنا عن الواقع الاهداف المرحلية التي تقود الى الهدف العام وهو تحقيق الشيوعية .

مصدر الالتباس ، هو ان تحليل ماركس العلمي تنبأ بسقوط الراسمالية لتفاقم تناقضاتها ، ودعا نتيجة لذلك العمال ليثوروا ، والسؤال الذي يتبادر : هل هذه النبوءة وتلك الدعوة جزء من التحليل العلمي ، هنا المفترق، فالواقع ، ومن ثمة تحليله ، لا يقولان لنا ثوروا ، وانما هذا القول أمر اخر غير التحليل العلمي ، أمر اخر يعكس هدفية الانسان ، وتناسب التحليل العلمي ، لكنها ليست اياه .**فالعلم تحليل للواقع والفلسفة تحليل للاهداف بما يناسب الواقع ، الفلسفة تخطيط .**

---

**(١) المختارات ٢/١ حول الشعارات ص ٢٦٦ عام ١٩١٧**

**معنى هذا انه يجب ان نبدل اهدافنا ـ برنامجنا ـ مع كل تبديل للواقع** ، ولكن هل يجوز ان نرفع كل يوم شعارا ؟ والرد ، هل يجوز ان نرفع شعارا لم تبق له قيمة في الواقع ؟

هذه الفجوة لا يدركها هؤلاء الباحثون عن الثوابت ، فهم يقولون لنتعامل مع النظرية كقانون ثابت حتى يأتي من ينقدها ، وبذلك نؤلف القلوب حول أمر لا يولد البلبلة . بيد ان معنى هذا وترجمته عمليا ، هو وضع برنامج والسير معه بصورة متخلفة ورجعية . معنى ذلك خداع الجماهير ، وجعلها تسير كعميان خلف نظرية لم يبق من مبرر لها . ومعني ذلك تخلف الماركسيين ، فبدل أن يقودوا الواقع ويسيطروا عليه يصبحوا خاضعين له من دون اية نظرية تقودهم ، وبالتالي يصبحون متخلفين ، والاكثر من هذا ، فان الجماهير ليست غبية حتى تتقبل برنامجا لا يساير الواقع ، واذا كانت تتقبله كفئة حزبية منضبطة ، فهذا لا يعني ان القلق والانفصام والشك لن يتطرق لوعيهم . ان الماركسية بما هي ناقدة وثورية ، لها المستقبل ، هي المؤهلة لوحدها لتحليل الواقع ، وادراك تبدلاته ووضع البرامج التي تقود الى تحقيق هدفها . **عدا ذلك ستسود الفوضوية ، وستسود التلقائية والعفوية ، وسيسود الارتجال .**

وهكذا نرى ان عكس ما يقوله هؤلاء هو ما نصل اليه ، فدعواهم هي التي تعني الفوضى والعفوية . وليس غريبا أن يحارب لينين امثال هؤلاء في ايامه ، فدائما هناك من يقدس القانون كأمر ثابت ، فيتغافل عن دراسة الواقع ، ويكتفي بترديد الآيات المنزلة ، يكتفي بكسله .

واذا كنا قد بينا ان الماركسية علم العمل وفلسفة العمل ، فان اللينينية في احد اسسها ـ كما سوف نبين ـ تدعو للعمل كبديل عن القول ، ومعنى هذه الدعوة ، هو اليقظة المستمرة ، والرصد العلمي المستمر ، وسرعة التجاوب ، وسرعة تبديل الاهداف المرحلية . معناه ان نملك الواقع ، وان نصنع التاريخ. معناه أن لا نفهم الماركسية « كمجموعة من القوانين » كفلسفة مطلقة ، بل ان نفهمها كعلم يحلل الواقع في جدله مع الانسان ، وان نفهمها كهدف

نسعى اليه . نفهمها كعمل لا كقول . ولا اعرف كيف سنحدد اهدافنا ان كنا لا نعرف الواقع وان كنا قد احلنا ــ جيرنا ــ الواقع للقانون الثابت ؟! (١)

البشر ليسوا الهة ، لذا فعلمهم ناقص ، وعملهم في الوجودناقص. ومن المحال الصعود فوق كل هذا ، بادعاء العلم الثابت ، المطلق ، الذي يكشف كل الحقيقة .

وهذا وان كان نقطة ضعف ضخمة ، فان اقرارها يشكل دائما هاما ، لتجاوز ما هو كائن ــ علما وتاريخا ــ ومن دون هذا التجاوز لا يبقى للانسانية هدف . وادعاء القوانين الثابتة الغاء لهذا التجاوز، وقولبة للانسانية في اطار ما هو كائن .

ولسنا نبعد كثيرا ، الم يرهنوا تبدل القوانين لتبدل الظـــروف ؟ ومن الظروف الا العامل المادي ، وعلى نحو محدد الانتاج ؟

على ماذا يدل كل هذا ؟

ان الواقع هو المعيار وهو المرجع ، ولا قانون ثابت . ان اي قانون هو فرض ، لا نبحث عنه في الواقع ، لنسجل ما يؤيده ، بـــل نحلل الواقع وحده ، ونسترشد بالفرض ــ منهجا وموضوعـــا ــ لا اكثـــر .

من هنا تأكيدنا على ان الاساس الثاني للينينية هو تحليل الواقع لا هذه النتائـــج .

---

(١) في بلادنا يحيلون الامور الى عدم التخطيط او فوضاه . بيد ان هؤلاء لا ينتبهون الى ان التخطيط (وضع البرامج ــ الاهداف ــ التشريع .. ) لا يكون الا بعـــد تحليل الواقع ، ونحن لم نحلل واقعنا حتى الان بصورة شاملة ( لقد حلل هذا الجزء او ذاك ) . فكيف نخطط ؟ وعلى اي شيء نبني والواقع منتف . ان التخطيط دون تحليل الواقع هو العفوية والارتجال .

اذن في العلم ، لا تطالبنا اللينينية الا بما يأتلف مع العلم ، الا بما يكون به العلم . وهل يكون العلم اذا لم ندرس الواقع المحسوس بخصوصيته وبشموليته ؟ من هنا نستخلص ان ما يلصقه النقاد وادعياء المعرفة باللينينية مجرد دعاوي لا أساس لها ، عندما يرون ان الماركسية تقيد العلم بقيود تمنعه من التقدم ، وعندما يرون ان الماركسية تدخل على العلم ما ليس فيه . فالعلم الماركسي انمايطرد العلم الذاتي ، العلم الذي حصر نفسه في حيز ضيق من دون ان يستوعب الا العناصر التي تخدم مصالح رجاله . يطرد هذا ليقيم العلم الصحيح ـ العلم الانساني .

لكن .. لقد تكررت في النصوص السابقة كلمة ديالكتيك كثيرا ، الا يعني هذا ان المنهج الماركسي بحد ذاته قيد على العلم ؟ والا يعني هذا ان الماركسية تفرض على العالم أن يرى الواقع من منظار محدد ؟ السنا ونحن نطالب العالم بأن ينظر الى الواقع نظرة جدلية، نجبره على ان يدخل الواقع في قالب « فكري » مسبق ، وعلى الاقل ان يبحث عن هذا القالب في الواقع ليجد ما يؤيد دعواه ؟

نعم في الماركسية نجد دعوى الجدل ، على أساس نقيض موقف هيجل . ذلك ان الواقع بنفسه جدلي . بيد ان المماحكة ترى ان القلب الماركسي انما هو قلب فكري لتفكير هيجل منذ فويرباخ ، اي انه قلب فلسفي وليس قلبا علميا ، لان القلب العلمي يجب ان يلتزم بالواقع ، بالمحسوس ، بالخاص ، ان نبحث ثم نستخلص المجرد. لا ان نبحث عن المجرد في الواقع . الم يقل انجلز ولينين وسواهما اننا يجب ان نحلل الواقع لنجد فيه ما يؤيد الجدل وعلى وجه الخصوص ما يثبت التناقض ؟

ضد كل دوغمائية فكرية عن الجدل ، نتابع مع لينين ، موقفه المحسوس ، الرافض لهذه القيود ، الناقد لتصوراتها المثالية . قال لينين :

« اصطدام السيد ميخايلوفسكي على الدوام ، وهو يطالع الكتابات الماركسية « بالطريقة الديالكتيكية » في علم الاجتماع ، و « بالتفكير الديالكتيكي » في حقل القضايا الاجتماعية ايضا ( الحقل المقصود الوحيد )، الخ . **وقد تصور لسذاجته** ( هذا اذا لم يكن ثمة

دافع آخر غير السذاجة) **ان هذه الطريقة تقوم في حل المسائل الاجتماعية كلها وفقا لقوانين الثلاثية الهيجلية . ولو أنه أعار الامر انتباها أكثر بقليل ، لكان من المؤكد ، اقتنع بسخافة هذا التصور .**
ان ما يسميه ماركس وانغلز **الطريقة الديالكتيكية – خلافا للطريقة الميتافيزيقية – ليس الا طريقة علمية في علم الاجتماع ، تقوم على النظر الى المجتمع بوصفه جهازا حيا يتطور باستمرار** ( لا شيئا مترابطا بصورة ميكانيكية ، يتيح بالتالى شتى انواع التركيبات الاعتباطية بين مختلف العناصر الاجتماعية ) جهازا عضويا تتطلب دراسته تحليلا موضوعيا لعلاقات انتاجية تشكل بنية اجتماعية معينة ، ودراسة لقوانين عملها وتطورها » (١) .

اذن لا تطالب الماركسية العالم بأن يحمل ثلاثية هيجل ليدرس الواقع بحسبها انما تطالبه بدراسة التطور الواقعي فحسب .

وانتقل لينين ، فحلل موقف ماركس وانجلز ، فذكر :

« .. **انهما لا يشيران بشيء الى ثلاثيات هيجل ، وان كل شيء عندهما يقتصر على النظر الى التطور الاجتماعي بوصفه عملية تطور تاريخية للبنى الاقتصادية الاجتماعية .. »**

ونقل عن ماركس « **ان الطريقة التي طبقها في راس المال قد أسيء فهمها** » . فما يهمه بالدرجة الاولى « **انما هو قانون تغير تطور هذه الظواهر** ، وانتقالها من شكل الى اخر .. » يهمه « **اكتشاف قوانين الظواهر التي يحللها** » (٢) .. الخ

اذن ، ومرة اخرى ، لا تطالب الماركسية العالم بحسب طريقتها ان يقولب الواقع بحسب ثلاثية هيجل ، لا تطالبه بأن يبحث عن الواقع في القانون ( او الطريقة ) الفكرية . بل تطالبه بأن يدرس الواقع المتبدل ليجد قانونه ، فالجدل الماركسي يعني التطور ، لا شكلا فكريا جامدا .

---

**(١) من أهم اصدقاء الشعب عن « في الادب والفن » لينين ج١ ص ٤٢ – ٤٣ ترجمة يوسف حلاق . دمشق ١٩٧٢ . انظر كراسة من هم اصدقاء الشعب ص ٥٠ موسكو – التقدم عام ١٩٧٠.**

**(٢) نفس المصدر السابق .**

ان ما ينقده الفلاسفة في الماركسية ، ينقده لينين ، ويعتبره سذاجة، وسخافة. ذلك انه من الملاحظ منذ تحليلات هيجل ان عملياته مصطنعة في تركيباتها ، فهل يجوز ان ننقل هذه العمليات المصطنعة للواقع ( وهو ما اسميناه تولبة الواقع ) ؟ يرفض الفلاسفة هذا ، ويعتبرونه مأخذا على الماركسية ، بيد أن لينين يعتبره كذلك أيضا، ويعتبره فوق ذلك سذاجة . فالماركسية بما هي طريقة في الجدل لا تطالب بتطبيق عمليات هيجل الاصطناعية .

وما طرحناه عن قضية المحسوس والمجرد ، وقضية الخاص والعام ، عند لينين ، الا تاكيدا جازما في منحى هذا الجدل ، بالتزامه المحسوس والخاص . اي بالتزامه الواقع فحسب .

وفي اطروحة لينين عن الجدل (١) ، اهتم ، وركز على ما بينه هيجل سابقا ، في **علاقة العام والخاص** ، ورفع هذه العلاقة ليجعلها محورا اوليا للجدل ، محورا لاقامة جدل خاص حي ، بعيدا عن الاصطناع والقولبة، باتجاه علم صحيح، يبعد عن الدوغمائية المجردة، باتجاه الواقع ، المحسوس والخاص . من دون ان ننسى خلال ذلك ، ان اهتمام لينين هذا ، يستعيد وضع الجدل في تاريخ الفلسفة، لا كتيار مميز فيها ، بل كاطروحة اساسية في هذا التاريخ كله ، سواء عند من كانوا جدليين او لم يكونوا .

## ٣ ــ هدف الماركسية هو الشيوعية :

مع هذا الاساس الثالث ، ننتقل من ارض العلم الى ارض الفلسفة . والفلسفة بحث في الاهداف وفي الغايات . وما يميز الماركسي هو كونه يؤمن بعقيدة تهدف الى تحقيق الشيوعية ، اي الى تحقيق حقوق الانسان ، العدل والمساواة ، تحقيقا واقعيا ، تهدف الى الغاء استغلال الانسان للانسان ، ومنع سرقة عمل الانسان من قبل فئة مستبدة ، وتهدف الى الغاء الدولة كسلطة مستبدة تستخدم

---

**(١) انظر البحث في دفاتر عن الديالكتيك ص ٢٦١ ترجمة الياس مرقص . دار الحقيقة بيروت سنة ١٩٧١ وانظر مجموعة الماركسية . ماركس . انجلز ص ٣٨٦ .**

كأداة لاستعباد الفئة العظمى من البشر وفقا لمصلحة القلة المتسلطة على قوى الانتاج . الماركسية كفلسفة تهدف الى ازالة بؤس الانسان وضياعه واغترابه الناتج عن معاملته من قبل المستغلين كآلة او كحيوان ، على حين ان الالة والانتاج تتعاظم قيمته فيتأنس ويقود المستعبدين . ان ازالة الاغتراب والضياع بمنع سرقة العمل ، وتحقيق المساواة والعدل وتحرير العامل من عبودية العمل غير الانساني ، يعني استعادة الانسان لانسانيته وتحرير طاقاته المهدورة ، واطلاق حريته ليبدع وليظهر الوجه الحقيقي لوجوده كانسان واعي ، بمعنى ككائن وحيد يعمل بحسب أهداف يعيها ويسعى لتحقيقها .

ان الماركسية ، فلسفة عمل ، مثلما هي علم العمل . ان تحليلاتها العملية تكتشف بنية المجتمع الفاسد القائمة على سرقة العمل . وان تحليلاتها الفلسفية المبنية على نتائج العلم تهدف الى منع سرقة العمل ، وتحرير العامل من استغلال عمله . وهي كفلسفة تهدف بعد تحقيق الثورة ، وبعد ازالة الاغتراب ، تهدف كمثل اعلى الى الوصول بالانسان الى المرحلة التي بها يكون العمل حاجة اولى عنده .

ويوضح ماركس مرحلتين للوصول الى هذا المثل الاعلى . في المرحلة الاولى « ولا يمكن ان يرتفع الحق الى مستوى أعلى من الوضع الاقتصادي للمجتمع ومن درجة الحضارة المساوية له » (١) حيث يكون العمل معيار المساواة في الحقوق . اما في المرحلة الثانية اي « عندما يصبح المجتمع الشيوعي في مرحلة عليا ويتوارى نظام تجزئة العمل الذي اذل الافراد ، ويختفي معه التناقض بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، **عندما لا يظل العمل وسيلة للعيش ، ويضحي في حد ذاته ، حاجة الحياة الاولى ، عندما** يتزايد تطور الافراد وتتضاعف قوى الانتاج أيضا ، وتتفجر

---

(١) نقد برنامجي غوتا وايرفورن : نقد برنامج غوتا: ماركس ص٢٩:صلاح مزهر دمشق ١٩٧٤

جميع منابع الثروة التعاونية بغزارة ، حينئذ يمكن تجاوز أفق الحق البرجوازي الضيق نهائيا ، ويستطيع المجتمع ان يكتب على راياته « **من كل حسب طاقاته ، ولكل حسب حاجاته !** » (١) .

وهو المثل الاعلى الذي سيسميه لينين ، وسيزيده شرحا وتفصيلا، كما سوف نبين .

ان هذا المثل الاعلى يعني مجتمعا متساويا ، لا استغلال فيه ولا عبودية ، وبتعبير ادق ، يعني مجتمعا دون طبقات . يقول ماركس :

« وان الجديد الذي اعطيته يتلخص في اقامة البرهان على ما يأتي ١ — ان وجود الطبقات لا يقترن الا بمراحل تاريخية معينة من تطور الانتاج ٢ — ان النضال الطبقي يفضي بالضرورة الى ديكتاتورية البروليتاريا ٣ — **ان هذه الديكتاتورية لا تعني غير الانتقال الى القضاء على كل الطبقات والى المجتمع الخالي من الطبقات** » (٢).

ان هذا المثل الاعلى ، يحدد هدف الفلسفة الماركسية ، ويصنع افقها ، كفلسفة انسانية ، انسانية بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، وكبديل عن الفلسفات التي تدعي تبنيها هذه اللفظة قولا ، على حين تنزلق الى تأييد الاستغلال والاستعباد فعلا ، او على حين تتقعر في عزلة فردية ، تاركة الانسانية للدمار ولشريعة الغاب .

من الشائع القول ان الماركسية من دون افق ، لقلة ما كتبه ماركس فلسفيا ، اذ كان اهتمامه الاول منصبا على البحث العلمي، ولما يشيعه الماركسيون المبتذلون عن الموضوعية ، فكأن الايمان — نعم الايمان — بمثل أعلى ( كثيرا ما يردد لينين هذا التركيب ) يتناقض مع الموضوعية ، ويتناقض مع الشيوعية العلمية . ان هذا يعكس قضية الخلط بين ما هو علمي وما هو فلسفي ، ويعكس عدم

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠

(٢) مختارات : ماركس ، انجلز . المجلد ٤ ص ١٤٩ رسالة الى يوسف فيديماير سنة ١٨٥٢ موسكو — دار التقدم

تمييز الحدود بين العلم والفلسفة . لذا نؤكد بأن للماركسيةوللينينية **مثلا أعلى ، هو هدف فلسفي ، وهو اقامة المجتمع الخالي من الطبقات ، المجتمع القائم على العمل كحاجة أولى ، المجتمع الذي تتحقق فيه الحرية والمساواة والعدل . وأن هذا الهدف لا يتناقض مع العلم ، بل به يصبح للعلم اتجاه ومغزى .**

الماركسية كعلم دراسة للواقع . وقد لا نجد في الماركسيةاطروحة **ان الواقعحيادي، أي انه متعادل القيمة ، وبالتالي فانالبحثالعلمي حيادي ومتعادل القيمة** ، قد لا نجد ولكنيمكن ان نستنتج هذه الاطروحة من الكتابات الماركسية ، وكحد ادنى ، لا نجد ان مثل هذه الاطروحة تعارض أية فكرة ماركسية .

معنى ذلك أن العلم دراسة حيادية للواقع ، فالنظرية العلمية تصف الواقع ولا تقول لنا ان الواقع يهدف الى تحقيق هذه القيمة أو تلك . وانما تقول لنا هذا الفلسفة ، التي هي بحث في الاهداف كما ذكرت .

ان القول بعدم حياد الواقع والعلم قيميا ، ارث مثالي ، وضعته الفلسفات التي جعلت الوجود غائيا ، لكونه يتمثل لارادة غيبية علوية او مبثوثة فيه كارادة او كقوة حيوية تسير الوجود وفق مخطط مسبق نحو غايات مطلقة محددة منذ الازل . ومنذ الفلسفة اليونانية نجد هذا الخلط او الاتحاد بين الوجود والغائية ، من هنا اكتساب الوجود معنى. ايكونه قانونا فكريا وأخلاقيا ..ومن هنا كونالبحث الفلسفي في الوجود لا يكتشف الوجود فحسب بل ويكتشف غائيته، لا يكتشف النظام بل ويكتشف القيمة متحدة بهذا النظام .

**ولدى تقدم العلم ووصوله الى قوانين الوجود الطبيعية والرياضية ، عزل النظام عن القيمة وعنالغائية ، وقدم لنا الوجود مجردا** . من هنا نحيب الفلسفات الحديثة التي لا تزال غارقة في الفهم القديم للمشكلة الانطولوجية ، وتكرارها الحديث عن العبث واللامعنى . ان مثل هذا الحديث لم يستوعب التبديل الجذري في المشكلة الانطولوجية . ولذا ينتحب على المعنى ( القيمة ـــ الغائية ) التي فقدت من الوجود . من دون أن يقدر على تجاوز هذا الاقرار ،

الى **البحث عن القيمة والغائية ، والتي غدت محمولا وحيدا للانسان ، بما هو انسان هادف** . من هنا الانفصال الجذري بين الفلسفة والعلم ، ومن هنا ، من الانسان يعود الالتقاء بين الفلسفة والعلم. العلم يقدم بحثا مجردا ، حياديا عن الواقع الحيادي ، والفلسفة تقدم الهدف المناسب بحسب المثل الاعلى ، وبفعل الانسان وعمله يصبح العلم ذا اتجاه وبفعل الانسان وعمله يصبح الوجود ذا اتجاه، بمعنى انه يصبح من اجل الانسان بعد أن كان من اجل ذاته ( في ذاته ) . وهو ما سنعالجه في الفصل القادم .

اذن يمكن ان نقول ان اطروحة حياد الواقع والبحث العلمي واطروحة أن الفلسفة بحث في الاهداف والقيم ، بحث في المثل الاعلى، لا تتعارض مع الماركسية . بل انها جزء من الماركسية **تحدد أفقها ومسارها** ، مثلما تحدد امتيازها كفلسفة أصيلة . (١)

وبالعكس ان كون الواقع ذا اتجاه غائي وقيمي ، يؤسس الفلسفات المناهضة للماركسية ، ويؤسس دعوات الاستسلام والرضا بالواقع .

ان عدم وضوح هذا ، ولد التشويه الذي اصبح قانون ايمان ينص على ان البنى الفوقية تعكس البنى التحتية . وهنا بالذات نمس الاساس النظري لهذا التشويه ، فالواقع ، لا يقول ان هطول المطر لانبات الزرع ، ولصنع الخبز ، ولاسعاد الجماعة الفلانية ، ولشفاء الجماعة الاخرى . والواقع لا يقول ان نمو الراسمالية يحتاج الى سرقة العمل ، واغتراب الانسان ، وتحطيم انسانيته ، بل يقدم الواقع نظرية مجردة خالية من الغايات والقيم ، ولذا فان انعكاسه الوحيد هو هذه النظرية العلمية المجردة الحيادية . وانما الانسان

---

**(١) ان نشر الفكرة المطلقة الهيجلية في الوجود ، انما هو عمل الماركسية الشائعة ، ولذا فان هذه الماركسية لا تقبل حياد المادة ، بل تراها غائية مثلما كان هيجل قد نظر . بيد أن الماركسية ( في راس المال . وهنا في لينينية الواقع والعمل) لا تتناقض مع حيادية الوجود . فالغايات ــ كما ذكر ماركس في راس المال ــ انسانية وفعل الانسان غائي ، وبهذا يمتاز بما هو انسان .**

( الجماعات ، الطبقات .. ) تضع الاهداف لصالحها وبما يتناسب مع النظرية العلمية . وهذه الاهداف متنوعة ، وذات امكانيات مختلفة ، فينشأ الصراع وتسيطر القوى الاكثر التزاما بالواقع ، والاكثر تنظيما ووعيا ، وقوة ، مستعبدة القوى الاخرى .

لقد نقلت راي لينين الذي يوضح أن الوعي ( الاهداف والقيم ) لا تتولد عن الواقع ، لان الواقع يولد العفوية فحسب ، اما الوعي فهو خارجي يضعه المثقفون . معنى هذا ان البنى التحتية تولد العفوية ولا تولد البنى الفوقية . فأي بنية تحتية أو اي نظام اقتصادي يقول لنا أن الشيوعية ضرورية ؟ ان البنية توضح ما هو كائن لا ما يجب ان يكون . والتنبؤ العلمي لا يوضح اهدافا ، بل يوضح مسار الكائن . اما الفلسفة فترسم ما يجب أن يكون لا ما هو كائن ، والتنبؤ الفلسفي يوضح الاتجاه بعد وضع الاهداف ولا يوضح مسار الواقع . وانما الشيوعية هدف فلسفي لا نتيجة علمية ، ومن هنا تكرار الحديث عنها عبر تاريخ الانسانية ، على اشكال مختلفة ، لتشير الى اسباب اغتراب الانسان ( الملكية الفردية ) ومحددة طريق الخلاص بوضع أهداف شتى لسعادة الانسان ، اولها الغاء هذه الملكية .

بذلك نحدد الخط الفاصل بين العلم والفلسفة . العلم بما هو قراءة حيادية للواقع الحيادي . والفلسفة بما هي تحديد للاهداف، سعيا وراء الكمال ، طلبا للكمال ، طلبا للمثل الأعلى .

الشيوعية ، مثل اعلى ، على الارض ، مثل أعلى للبشر كلهم ، مثل أعلي يطلب منع الاستعباد ومنع سرقة العمل ، ويطلب العدل والمساواة الحقيقيين . غايتها الحرية الانسانية ، الحرية المبدعة ، وقد غدا العمل حاجة اولى ، لا حاجة دنيا تبغي اشباع المعدة . الشيوعية فلسفة انسانية ، متفائلة ، غايتها مستقبل الانسان .

فهل هي كما يدعون فلسفة ضيقة الافق ، بل ومن دون افق ؟

انها لم تحصر نفسها عند اشخاص فرديين ، خصت نفسها لهم ، على سبيل انهم عظماء ، بل وجهت نفسها لكل الاكثرية المسحوقة .

وهي لم تحدد اهدافا سفلية ، بل حـــددت مثلا أعلى ، يحقق

انسانية الانسان ، بما هو حامل للاهداف ، وبما هو حر ومبدع .

ولم تغلق نفسها على آفاق جزئية . اذ متى ستتحقق الشيوعية، ومتى ستستطيع الغاء العبودية والاستغلال على كل الارض ؟! والثورة ، ليست الا بداية لاعادة التنظيم ، واعادة الوعي . بل والعودة الى الجدل الصحيح بين الانسان والوجود ، فمتى ستتحقق حرية الانسان تجاه الانسان وبعد الثورة ؟ ومتى ستتحقق حرية الانسان تجاه الطبيعة وبعد الوصول الى الشيوعية ؟!

لقد حاربت الماركسية ما هو مطلق في المثالية ، لكون هذا المطلق وهم يتستر على الواقع ، ولكونه نقيض العلم ، ولكونه .. الخ .. بيد اننا بعيدا عن المثالية نتساءل ما الشيوعية ، ما هذا المثل الاعلى؟ ما العدالة ؟ وما المساواة ؟ السنا كلما وصلنا الى مرحلة من العدل والمساواة ، وجدنا نقصا ، فطلبنا الاكمل لتحقيق مزيد من العدل والمساواة ؟ **ألا يجوز أن نقول ان هذا المثل الاعلى الماركسي ، هو المطلق ( بما هو محمول فكري عند الانسان ، بما هو هدف مطلق يسعى اليه الانسان )** ؟ الا يجوز ؟!

ان الشيوعية ، كمثل اعلى ، هي بديل ما تطرحه الفلسفات الاخرى عن الاوثان ، والاوهام .

والفروق الاساسية ، هي في كون الماركسية لا تقدم كلاما وخيالا، بل **مرشدا فلسفيا** ( كما قدمت مرشدا علميا ) وهي تضع اهدافها المرحلية بما يتناسب مع الواقع . وكذلك هي في كون الماركسية لا تقدم مثلا اعلى فرديا ، بل مثلا اعلى جماعيا . وكذلك هي في كون الماركسية تربط الهدف بالعمل الثوري ، لا بالرؤيا أو بالرؤية أو بالنشوات الصوفية او بالاتجاه الوهمي . فالطريق الى المثل الاعلى طويل ، وهو لا يتحقق دفعة واحدة الا بالوهم وبالخيال ، وانما يتحقق باعتباره مرشدا فلسفيا للتخطيط ، مرشدا يدلنا على ما تستطيعه الانسانية عبر الواقع ، فنشتق اهدافا جزئية ، تلغي الاخطاء ، وتدفعنا نحو وضع صحيح ، فوضع أصح .. وهلم جرا . الى ما لا نهاية له ، لان الكمال المطلق يظل حافزا مستمرا لتجاوز ما هو كائن بصورة دائمة . فهي فلسفة منفتحة على افاق شاسعة،

نقيض الدعوات المنفتحة على الوهم والخيال قولا ، والمنغلقة على الواقع البائس فعلا .

اين لينين من كل هذا ؟ :

« **ينبغي أن نحلم** » . ويتابع بشكل ساخر مفترضا الاعتراضات الدوغمائية المهددة والتي صاغها بشكل اسئلة توجه اليه : « أجب من فضلك ، هل يحق لهيئة تحرير مستقلة أن تحلم دون ان تستأذن في ذلك لجان الحزب ؟ » و « **هل يحق لماركسي أن يحلم بوجه عام اذا كان لمينس أن البشرية في رأي ماركس ـ تضع نصب عينهاعلى الدوام أهدافا ممكنة وان التاكتيك هو سير نحو ـ المهام التي تنمو مع نمو الحزب ؟** »

وشعر بالقشعريرة تسري في بدنه لهذه الاسئلة الرهيبة ، ويلجأ الى بيساريف ليرد على تلك الاسئلة عن الحلم والحقيقة :

« ليست جميع الخلافات واحدة . **اذ يمكن ان يسبق حلمي مجرى الاحداث الطبيعي** ، او يمكن ان تسير في اتجاه لا يمكن ان يفضي اليه سير الاحداث الطبيعي بحال من الاحوال » .

« **في الحالة الاولى لا يسبب الحلم أي ضرر ، بل قد يشجع ويشدد عزيمة الانسان الكادح** .. ليس في مثل هذه الاحلام ما يمكن ان يفسد او أن يشل القوة العاملة ، بل العكس بالعكس . فلئن كان الانسان محروما تماما من ملكة الحلم على هذا الشكل ، لئن كان لا يستطيع ان يستبق مجرى الاحداث أحيانا وان يتصور العمل الذي بدأ به لتوه جاهزا في صورته الكاملة النهائية ، **عندئذ لا استطيع ان اتصور بوجه من الوجوه الدافع الذي يدفع الانسان الى الشروع بعمل** جسيم متعب في ميادين الفن والعلم والحياة العملية والى الدأب حتى انجازه ... ان الخلاف بين الحلم والحقيقة لا يسبب اي ضرر ، **على أن يكون الشخص الحالم صادق الايمان بحلمه وعلى أن يتأمل الحياة بانتباه ويقارن بين ملاحظاته والقصور التي يبنيها في الهواء،** وعلى ان **يعمل بوجه عام وبصورة وجدانية على تحقيق حلمه . فعند وجود التماس بين الحلم والحياة تسير الامور على ما يرام** » (١) .

---

(١) المختارات ١/١ ص ٢٣٩ ما العمل

ماذا يقصد لينين ؟

انه يضع الحلم معاكسا للاهداف الممكنة ، وللتكتيك المرحلي اليومي والحزبي ، بمعنى اخر يضع الحلم فوق الاهداف المرحلية ، وبذلك فالحلم هو الهدف العام ، او المثل الاعلى ، والايمان بهذا المثل ، لا يسبب ضررا ، وليس ضد الموضوعية ، لانه يشدد عزيمة الانسان ، بما هو دافع ، ومحرض ، يدفع للعمل ، ويحرض لتجاوز الواقع . على اي نحو ؟ لا يحدد لينين الا شرط التماس بين الحلم والحياة ، كيف ؟ أضيف : التماس يكون بين الحلم او ( المثل الاعلى ) والحياة ( او الواقع ) عبر الاهداف المرحلية ، عبر الاهداف الممكنة والتكتيك المرحلي اليومي والحزبي ، والمشتق من المثل الاعلى والمناسب للواقع .

هل قفزت قفزة وهمية من الحلم الى المثل الاعلى ؟ لا . لنرى حلم لينين أو لنرى مثله الاعلى .

تحت عنوان : « اعلان حقوق الشعب الشغيل والمستثمر » نجد قرارات الجمعية التأسيسية ، ( الغاء الملكية ، الرقابة العمالية ، فرض العمل الالزامي ... الخ ) المقررة نتيجة لكون هذه الجمعية أخذت على عاتقها المهمة الاساسية التالية :

**« القضاء على كل استثمار للانسان من قبل الانسان ، ومحو انقسام المجتمع الى طبقات محوا كليا وسحق مقاومة المستثمرين سحقا لا رحمة فيه ولا شفقة ، وتنظيم المجتمع على أساس اشتراكي ، وانتصار الاشتراكية في جميع البلدان . » (١)**

وعندما تحدث عن بناء الاقتصاد مع الفلاحين ، واعادة البناء مرات عديدة لاقامة الاتصال بين الصناعة والزراعة والعمل الذي يقوم به كل فلاح ، بين ضرورة ايضاح هذا الاتصال ليرى الفلاحون الصلة بين حياتهم الشاقة اليوم « وبين العمل الذي يجري في سبيل **المثل الاشتراكية البعيدة » (٢)** .

---

(١) المختارات ٢/٢ ص ٩٠ اعلان حقوق الشعب الشغيل والمستثمر ( ١٩١٨ )

(٢) المختارات ٢/٣ ص ٣٤٧ المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الروسي ( ١٩٢٢ )

وفي مكان اخر بين ان المساواة تعني القضاء على الطبقات ؛ على حين ان الديموقراطية لا تعني الا المساواة الشكلية ، واضاف ·
« فما أن تحقق مساواة جميع أعضاء المجتمع حيال تملك وسائل الانتاج ، اي المساواة في العمل ؛ المساواة في الاجور ؛ حتى تطرح امام البشرية لا مناص مسألة السير الى الامام ؛ من المساواة الشكلية الى المساواة الفعلية الى تحقيق قاعدة :« **من كل حسب كفاءاته ، ولكل حسب حاجاته** » ونحن لا نعرف ولا يمكننا أن نعرف عن طريق اية مراحل واية تدابير عملية ستسير البشرية نحو هذا **الهدف الاعلى** · » (١)

ويفسر عندما يتعرض « للعدالة » :
«ان العدالة بنظره ( بنظر بيشخونوف ) ليست سوى كلمة جوفاء، ولكنها ليست كذلك بنظر انصاف البروليتاريين واغلبية البرجوازيين الصغار في المدن والارياف ، الذين انهكتهم الحرب واذاقتهم ألوان العذاب ··· »
« العدالة كلمة فارغة ، يقول المثقفون والدجالون المستعدون لان يتجلببوا بجلباب الماركسية لهذه الحجة النبيلة وهي انهم « تأملوا دبر » المادية الاقتصادية ·

« **ان الافكار تغدر قوة حين تستولي على الجماهير** » ··· (٢) ·

وكتب عن المرحلة القادمة ما يلي :
« ··· ولكن ليس العنف وحده ، ولا العنف بالدرجة الاولى . هو الذي يشكل جوهر الديكتاتورية البروليتارية · ان جوهرها الرئيسي يكمن في روح التنظيم والطاعة الذي تتحلى به فصيلة الشغيلة التقدمية وطليعتها وقائدها الوحيد ، البروليتاريا **وهدفها انشاء الاشتراكية ، ومحو انقسام المجتمع الى طبقات . وتحويل جميع اعضاء المجتمع الى شغيلة، وازالة كل اساس لاستثمار الانسان للانسان · وهذا الهدف ، لا يمكن بلوغه دفعة واحدة . ينبغي لهذا الغرض مرحلة طويلة نوعا ما للانتقال من الراسمالية**

---

(١) المختارات ٢/١ ص ٤٧٩ الدولة والثورة ( ١٩١٧ )
(٢) المختارات ٢/١ ص ٥٧٦ هل يحتفظ البلاشفة بالسلطة (١٩١٧)

الى **الاشتراكية** ، لان اعادة تنظيم الانتاج امر صعب ولانه يقتضي بعض الزمن من اجل اجراء تغييرات جذرية في جميع ميادين الحياة، ولانه لا يمكن قهر القوة الهائلة الكامنة في عادة ادارة الاقتصاد بالطريقة البرجوازية الصغيرة والبرجوازية ، الا بنضال عنيد طويل النفس ... » (١) .

وكتب عن العمل الجديد الآتي :

« ان العمل الشيوعي ، بأضيق معنى الكلمة ، بأدقه ، انما هو العمل المبذول مجانا في صالح المجتمع ، العمل الذي لا يبذل بوصفه فريضة معينة ، ولا للحصول على حق في بعض المنتجات ، ولا وفق معدلات قانونية معينة سلفا ، **انما هو عمل طوعي مبذول خارج كل معدل ، دون توقع اي مكافاة ، دون الاتفاق على مكافاة ، عمل مقرون بعادة العمل من أجل الجماعة وبالشعور** ( الذي غدا عادة ) **بضرورة العمل في صالح الجماعة ـ عمل يستجيب لحاجة من حاجات الجسم السليم .**

« وبديهي للجميع اننا ، ـ اي مجتمعنا ، نمطنا الاجتماعي ـ **لا نزال بعيدين جدا عن تطبيق هذا العمل تطبيقا واسعا ، جماهيريا فعلا** ... » (٢) .

ولعل كتاب « الدولة والثورة » افضل ما شرح المثل الاعلى كما تصوره لينين انطلاقا من ماركس وانجلز ، لذا نقتطف منه بعض ما يوضح ذاك المثل :

الدولة اداة قمع ، ظهرت مع انقسام المجتمع الى طبقات ، لتستخدم من قبل السلطة لصالح الطبقة المستعبدة ضد الطبقة المستعبدة . ولذا فانه اذا زالت الطبقات ستزول الدولة بالضرورة . الثورة العمالية ستقضي على الدولة البرجوازية ، وبعد تنظيم المجتمع تنظيما جديدا ستضمحل الدولة . (٣)

---

(١) مجموعة الماركسية . ماركس . انجلز ص ٥٤٠ (( تحية الى عمال البحر ))

(٢) المختارات ٣/١ ص ٦٦٢ (( من تدمير النمط الزمن الى ابداع النمط الجديد )) (١٩٢٠)

(٣) المختارات ١/٢ ص ٣٩٠ الدولة والثورة ( ١٩١٧ )

ان آلتي الدولة هما الدواوينية والجيش الدائم . وهما طفيليان على جسد المجتمع يسدان مسام الحياة · ولذا فان الثورة لن تحسن الآلة بل **ستكون مهمتها تحطيمها والقضاء عليها** ·(١) ·

وليكون هذا لا بد من الاعتراف **بالنضال الطبقي** ، **وبديكتاتورية البروليتاريا** التي تقود مرحلة الانتقال ، وخلال هذه المرحلة تنزع عن الوظائف كل طابع مميز ، وينتخب الموظفون ، وتنقص اجورهم لتعادل اجرة العامل · ذلك ان الغاء الدواوينية دفعة واحدة طوباوية · (٢) ·

« نحن لسنا طوباويين · نحن لا نحلم بالاستغناء دفعة واحدة عن كل ادارة ، عن كل خضوع · فهذه الاحلام الفوضوية الناشئة عن عدم فهم مهام ديكتاتورية البروليتاريا هي غريبة تماما عن الماركسية ولا تفعل في الواقع غير تأجيل الثورة الاشتراكية الى ان يصبح الناس غير ما هم عليه ···» (٣) ·

والكومونة هي البديل عن الدولة (٤) · لكنها شكل من اشكال الدولة ، وعلى سبيل المثال سيبقى التأجير والاستئجار ، وهذا من مهمة الدولة الجديدة ، اما توزيع المساكن دون مقابل ، فيقترن باضمحلال الدولة (٥) · **فالغاء الدولة هدف نهائي يمر عبر ضرورة الدولة البروليتارية في زمن محدد** (٦) ·

ان دولة البروليتاريا تنظم الطبقة المظلومة لتقمع الطبقة الظالمة ، كي تخلص البشرية من عبودية العمل المأجور ، وكي تمنع بالقوة سيطرة تلك الطبقة · من خلال ذلك تتأسس ديمقراطية الاكثرية من الشعب ، ديموقراطية الفقراء ، لا الاغنياء · وعندما يتلاشى الظالمون ، **عندما تنعدم الطبقات وتزول الدولة يمكن الحديث عن الحرية** ، وتتحقق الديموقراطية كاملة ، لكن عندها تضمحل الديموقراطية شيئا فشيئا لان الناس « يعتادون شيئا فشيئا مراعاة القواعد الاولية للحياة في المجتمع ، **القواعد المعروفة منذ قرون والتي**

---

(١) حتى (٦) : المختارات ١/٢الدولة والثورة ص ٤٠٢ ـ ٤٠٧ ـ ٤١٨ ـ ٤٢٣ ـ

(٣) ص ٤٢٣ (٤) ص ٤٣١ (٥) ص ٤٢٤ (٦) ص ٤٣٦

كررت الوف السنين في جميع الكتب ، يعتادون مراعاتها دونما عنف دونما قسر . دونما خضوع ، بدون هذا الجهاز المعد خصيصا للقسر المسمى بالدولة » (١) ·

القمع ضروري في مرحلة الانتقال ، اما عندما تحل الشيوعية ، لا يبقى احد ينبغي قمعه · « نحن لسنا بخياليين ، ونحن لا ننكر ابدا امكانية وحتمية وقوع مخالفات من افراد كما لا ننكر ضرورة قمع مثل هذه المخالفات · ولكن هذا الامر لا يحتاج اولا الى آلة خاصة للقمع ، الى جهاز خاص للقمع ـ فالشعب المسلح نفسه يقوم به ببساطة ويسر ··· » (٢) ·

وبصدد المستقبل هناك مرحلتان ، في المرحلة الاولى ( الطور الاسفل ) من المجتمع الشيوعي تكون وسائل الانتاج ملكا للمجتمع كله ؛ وكل عضو يعمل ، وبحسب عمله ينال كمية من البضائع . وفي هذا **يطبق الحق بالتساوي** ، لكن لا زلنا مع عدم المساواة ، لاننا نطبق مقياسا واحدا على اناس مختلفين وليسوا في الواقع متشابهين ولا متساوين ، ولذا فان هذا الحق المتساوي **هو اخلال بالمساواة وهو غبن** · من هنا **فان هذه المرحلة لا تعطي المساواة** ، انها تلغي استثمار الانسان للانسان · من دون ان تلغي الغبن الذي يتلخص بتوزيع مواد الاستهلاك حسب العمل لا حسب الحاجة ؛ او يتلخص بمن لا يعمل لا ينبغي ان يأكل ·

اما في الطور الاعلى ، فالدولة مضمحلة ، والحرية مستقرة · الحاجة الى العمل اولى متطلبات الحياة، والتضاد بين العمل الفكري والجسدي زال ، والقاعدة هي من كل حسب كفاءاته ولكل حسب حاجاته · اي ان العمل يصبح طوعيا ، فتتطور القوى المنتجة تطورا هائلا (٣) ·

ان اضمحلال الدولة مؤكد وحتمي · لكن هذا لا يستغرق وقتا طويلا ، ونحن لا نستطيع معرفة سرعة التطور ولا نوعيته · لذا لا

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٤٦٨ (٢) نفس المرجع السابق ص ٤٧٠ وراجع الحرب الاهلية في فرنسا لماركس ، ونهاية مقدمة انجلز له ·

(٣) المرجع السابق ص ٤٧٠ ـ ٤٧٦ ·

نستطيع تحديد الاهداف على نحو ادق واكثر تفصيلا ·

ماذا نستنتج من كل هذه النصوص ؟

ان الهدف العام ، المثل الاعلى ، الشيوعية ، ليس مجرد هدف اني ، افقه ضيق ، ومحصور بتلبية حاجات سفلية ، بل هو هدف ذو افق واسع جدا ، لا نصل اليه بين يوم وآخر ، بل هو دافع ومحرض لتجاوز مستمر باتجاه الكمال حيث ستسود العدالة والمساواة الحقيقيين ·

ان الهدف العام يختلف عن الهدف المرحلي ، ليس اياه ، بل وان الهدف المرحلي يوضع بحسب الهدف العام ، وباتجاهه · يشتق منه، ليكون قوة تستولي على الجماهير ·

والهدف العام البعيد ، وان كان بعيدا ، فهو ليس كلمة فارغة الا عند من يتأملون « دبر » المادية باسم الموضوعية ، والا عند من يقلدون برنشتين وانتهازيته مكررين كلماته : الهدف العام لا شيء ·

لكن اليس معنى هذا الايمان بمثل هذا المثل الاعلى ، بمثل هذا الحلم ، هو الطوباوية الخيالية المكروهة جدا ؟!

الطوباوية اصلا كما ذكر لينين : لا ـ مكان · اي مكان لا وجود له ، خيال ، فكرة وهمية · والطوباوية في السياسة « رغبة لا يمكن تحقيقها اطلاقا ، لا الآن ، ولا مستقبلا ، رغبة لا تستند الى القوى الاجتماعية ، ولا يدعمها نمو القوى السياسية والطبقية وتطورها»(١)

وقد كان الاشتراكيون الطوباويون القدامى يتصورون انه يمكن بناء الاشتراكية باناس من نوع آخر ، وانهم سيربون في البدء اناسا طيبين ، نظيفين ، متعلمين بشكل رائع ثم يبنون الاشتراكية بهم · وكنا نضحك دائما ونقول ان هذه لعبة ومن شانها تسلية آنسات متزمتات وليست سياسة جدية · » (٢) ·

---

(١) مجموعة في الادب والفن ج١ ص ١٨٤ طوباويتان ( قبل ١٩١٢ )

(٢) المرجع السابق ج٢ ص ٩٥ نجاحات السلطة السوفياتية ومصاعبها (١٩١٩)

وطوبانية الاشتراكيين السابقين على ماركس » تكمن في انهم حلموا بتغيير العالم المعاصر تغييرا سلميا عن طريق الاشتراكية ، دون ان يحسبوا حسابا لمسألة اساسية كمسألة الصراع الطبقي واستيلاء الطبقة العاملة على السلطة السياسية واسقاط سيطرة طبقة المستغلين ·· (١) ·

لذا يرفض لينين اعتبار حلمه طوباوية ، لانه يبني هذا الحلم على نقيض بناء الطوباويين · قال :

« من السهل ، من وجهة النظر البرجوازية ، اعلان مثل هذا النظام الاجتماعي « طوباويا محضا » والسخرية من الاشتراكيين لانهم يعدون كل مواطن بانه سيحق له ان يأخذ من المجتمع بدون اية مراقبة لعمله أي مقدار من السكاكر او السيارات او اجهزة البيانو وغير ذلك · وبمثل هذه السخريات تتملص اكثرية « العلماء » البرجوازيين حتى الان مظهرين بذلك جهلهم ودفاعهم المغرض عن الرأسمالية ··· (٢) ·

« الجهل ، لانه لم يخطر لاي اشتراكي ببال ان « يعد » بحلول الطور الاعلى من تطور الشيوعية · اما فيما يخص نبوءة الاشتراكيين العظام بحلولها فهي تفترض انتاجية عمل غير انتاجية العمل الحالية وانسانا غير الانسان الحالي التافه الذي يستطيع ··· ان يبدد « لوجه الشيطان » الثروات العامة ويطلب المستحيل · »

وهذا التنبؤ ، هذا الحلم ، هذا المثل الاعلى ، هذا الهدف الاعلى. ان لم يكن طوباوية ، فهو ليس انعكاسا للبنية التحتية · وفي تلخيص لينين لميتافيزيا ارسطو ، نقد لهذا التبسيط ، وايضاح للحلم . وارجاع للبدء الذي بدأنا به · ارجاع لفهم بيساريف عن الحلم · كتب لينين :

« حين الفهم ( الانساني ) يتناول الشيء الفردي ، يسحب منه

---

(١) المرجع السابق ح١ ص ٢٠٠ في التعاون ( ١٩٢٣ )
(٢) المختارات ٢/١ ص ٤٧٦ الدولة والثورة ·

صورة ( مفهوما ) ، هذا ليس فعلا بسيطا ، مباشرا ، ميتا . **ليس انعكاسا في مرآة ، بل فعل معقد** ، ذو وجه مزدوج ، منكسر ـ متعرج **فعل يتضمن امكانية الطيران الخيالي خارج الحياة ؟ واكثر من ذلك ، انه يتضمن امكانية تحويل المفهوم المجرد ، الفكرة ( تحويلا لا يدركه الانسان، لا يعيه) الى خاطر خيالي ( في تحليل اخير = الله )** ۰ اذ ، في التعميم الابسط ، في الفكرة العامة الاكثر بدائية ، الـ «طاولة» بوجه عام ) ثمة قسط ما من الخيال . ( والعكس بالعكس : **من الحماقة ان ننفي دور الخيال حتى في العلم الاكثر صرامة** ودقة . ( انظر بيساريف عن الدور المفيد للحلم كدفع الى العمل وعن الاحلام الفارغة الضارة ) (١) ۰

هكذا ، اذن ، فهذا المثل الاعلى ، ليس انعكاسا ، ولا هو بالطوباوية ۰ ونضيف الان انه ليس دعوة مثالية ۰

ان الدعوات المثالية السابقة هدفت الى خداع الجماهير بالوعظ لتغطية مصالحها . ذكر لينين : لو ان البديهيات الهندسية كانت تصدم مصالح الناس ، لسعوا بكل تأكيد الى دحضها ۰ (٢) ۰ وذكر ايضا « لقد كان الناس وسيظلون ابدا في حقل السياسة ، اناسا سذجا ، يخدعون ( الآخرين ) ويخدعون انفسهم ، ما لم يتعلموا استشفاف مصالح هذه الطبقات او تلك وراء التعابير والبيانات والوعود الاخلاقية والدينية والسياسية والاجتماعية ۰۰» (٣) ۰

لهذا حارب لينين هذه الدعوات وبين زيفها وفي الوقت نفسه كشف عن طابعها الطبقي والمصلحي ۰

وفي بحثه الهام « مهمات منظمات الشباب » تعرض لينين للحد

---

(١) الدفاتر الفلسفية ج٢ ١٥١ ترجمة الياس مرقص ۰ دار الحقيقة بيروت عام ١٩٧٤ . قوله ( في التحليل الاخير : الله ) تصحيح لتصور فيورباخ . هذا ما دعاني الى طرح سؤال فيما سبق هل يجوز ان نقول ان المثل الاعلى هو المطلق ؟ ولم اجب ، لان بحث هذا خروج عن طبيعة هذه الدراسة . وسوف نستعيد الموضوع من البدء مع فيورباخ ( انظر : نحو فلسفة العمل ) للمؤلف

(٢) المختارات ١/١ ص ٨٥ الماركسية والنزعة التحريفية ( عام ١٩٠٨ )

(٣) المختارات ١/١ ص ٨٣ مصادر الماركسية الثلاثة .. (عام ١٩١٣)

الفاصل بين المثل الاعلى ( الاهداف والقيم : الاخلاق ) الشيوعية والمثل الاعلى المزيف للمثاليات الكاذبة والخادعة . قال في خطابه :

« ولكن . هل ثمة اخلاق شيوعية ؟ **هل ثمة سلوك شيوعي ؟ أجل، بكل تأكيد** • وغالبا ما يزعم ان ليس لدينا اخلاق خاصة بنا ، وفي معظم الاحيان تتهمنا البرجوازية ، باننا ، نحن الشيوعيين ، ننكر كل اخلاق • وتلك طريقة لتشويه الافكار لذر الرماد في عيون العمال والفلاحين •

« باي معنى ننكر الاخلاق وننكر السلوك ؟

« بالمعنى الذي تبشر به البرجوازية ، التي كانت تشتق من وصايا الله • وبهذا الصدد ، نقول ، بالطبع ، **اننا لا نؤمن بالله** ، ونعرف **جيدا جدا ان رجال الدين والملاكين العقاريين والبرجوازية كانوا يتكلمون باسم الله لكي يؤمنوا مصالحهم** كمستثمرين • كذلك كانوا لا يشتقون هذه الاخلاق من قواعد السلوك ومن وصايا الله ، وانما كانوا يستخلصونها ايضا من جمل مثالية او نصف مثالية ، تعني دائما شيئا يشبه كثير الشبه وصايا الله •

« **ان كل اخلاق من هذا النوع ، مستقاة من مفاهيم مفصولة عن الانسانية ، مفصولة عن الطبقات ، ان كل اخلاق كهذه ننفيها وننكرها** • ونقول انها تخدع العمال والفلاحين وتغشهم ، وتحشوا ادمغتهم حشوا ، وذلك في صالح الملاكين العقاريين والرأسماليين •

« اننا نقول : **ان اخلاقنا خاضعة تماما لمصالح نضال البروليتاريا الطبقي** • ان اخلاقنا تنبثق من مصالح نضال البروليتاريا الطبقي •

« ••• **اننا لا نؤمن بالاخلاق الابدية** ، واننا نفضح جميع القصص والحكايات الكاذبة الملفقة حول الاخلاق • **ان الاخلاق تتيح للمجتمع الانساني ان يرتفع الى اعلى ، ان يتحرر من استثمار العمل** ••• (١) •

هنا تدخل الدوغمائية لتفهم الامر فهما ميكانيكيا ، فتتصور ان القيم انعكاس للواقع • وتتخيل ان لكل بنية نوعا من القيم • فيتحول تاريخ الانسانية الى حلقات منفصلة ، من دون اي رواسب مفيدة او

---

(١) مجموعة الماركسية . ماركس . انجلز ص ٦٢٩ ــ ٦٣٥ مهمات منظمات الشباب ( ١٩٢. ) انظر ايضا المختارات ٢/٣ ص ٧١ ــ ٧٥

غير مفيدة يتركها القديم في الجديد ، لذا نجد من الهام ان ننهي بحثنا هذا عن الهدف الاسمى للشيوعية بحديثنا عنه كتتويج للتراث الانساني ، يحتفظ بالبواقي الجيدة ( علما ، ثقافة ، قيما ) ويلغي البواقي السيئة ··

**كتب لينين :**

« لقد اكتسبت الماركسية اهميتها التاريخية العالمية بوصفها ايديولوجية البروليتاريا الثورية لان **الماركسية لم تطرح جانبا على الاطلاق اثمن مكتسبات العهد البرجوازي بل ، بالعكس ، استوعبت واعادت صياغة كل ما كان ذا قيمة في تطور الفكر البشري والثقافة البشرية خلال اكثر من الفي سنة ·· » (١) ·**

وبصدد العلم كتب لينين :

« ان الاشتراكية تستحيل دون تكنيك الرأسمالية الكبير ، الموضوع وفقا لآخر كلمة في العلم الحديث .. (٢) .

« ·· فان « اختصاصيا في العلم والتكنيك » ، وان برجوازيا ، ولكنه يعرف العمل ، اثمن لنا عشر مرات ، في هذا الحال ايضا ، من شيوعي متبجح ، مستعد لان يدبج الموضوعات في اي لحظة من النهار والليل ، ويتقدم « بالشعارات » ، ويقترح التجريدات المحضة » (٣)

وبصدد الاخلاق كتب تحت عنوان : الشعار العام للظرف الراهن :

**« احسب حساباتك بعناية ووجدان ، ادر الاقتصاد بحكمة ، لا تدع نفسك تنساق وراء الكسل ، لا تسرق ، تقيد باشد الطاعة صرامة في العمل ، ان هذه الشعارات التى سخر منها بحق البروليتاريون الثوريون حين كانت البرجوازية تستر بمثل هذه التعابير سيطرتها بوصفها طبقة من المستثمرين ، تغدو اليوم ، بعد اسقاط البرجوازية ، اهم شعارات الساعة واكثرها الحاحا ···» (٤)·**

---

(١) المختارات ٣/٢ ص ٨٣ عن الثقافة البروليتارية ( ١٩٢٠ ) ·

(٢) المختارات ٢/٢ ص ٣١٦ حول الصبيانية اليسارية والنزعة البرجوازية الصغيرة ( ١٩١٨ ) ·

(٣) المختارات ٣/٢ ص ١٩٣ بصدد الخطة الاقتصادية الواحدة ( ١٩٢١ ) ·

(٤) المختارات ٢/٢ ص ٢٥٢ المهام المباشرة امام السلطة السوفييتية (١٩١٨)·

ولذا نراه يدعو للمثابرة ، وللطاعة ، وللنظام ، وللتضحية ، ولكل القيم البرجوازية ، لا لانها برجوازية ، بل لانها من **محمولات التراث الانساني ، ومن منتوجات البشر في سعيهم نحو الكمال ، ونحو القيم الافضل** · واذا كانت البرجوازية تتقن الثرثرة حول القيم ، فان الماركسية باستعادتها ، هذه القيم وباستعيابها لها ، انما **توحد القول والعمل** ، وهذا هو معيار مثلها الاعلى وهدفها الاسمى ·

نعم لا قيم ولا اهداف خالدة ، منزلة ، معلقة ، مفارقة ، آلهية ، سماوية الى آخر هذه الكلمات · لكن هناك قيما ومثلا أعلى ، كما ان هناك نتاج كفاح البشر عبر تاريخهم الطويل ، علما وخلقا وفلسفة وفنا ·· الخ ، والذي يشكل **رواسب وبواقي هامة** في كل مجتمع ، وهي جزء من كل مجتمع ، بشكل عادات وتقاليد ، وبشكل نظم وقوانين · والماركسية لا تنفي كل هذا ، ولا تدير ظهرها الى كل هذا ، بل تستفيد من كل هذا ، لا على سبيل الانتقاء والاختيار ولا على سبيل التوفيق والتلفيق ، بل بحسب ما يناسب مثلها الاعلى ، وهو تحقيق المجتمع الشيوعي (١) ·

***

ان الهدف العام بوضعه هذا يوضح حدود كل من الفلسفة والعلم ويبين العلاقة بينهما بشكل جذري ·

ان الهدف العام ، لا يدخل الى النظرية العلمية الا ليعطيها اتجاها ، وذلك بما يتناسب معها بحسب البرنامج او الهدف المرحلي ·

---

(١) ان النصوص السابقة على غاية من الاهمية · فلينين عندما يطالب بفضائل سابقة مقتنع بان هذه القيم لا ترتد الى الانتاج السابق ، وانما الذي يرتد هذا الاستخدام السيء لها ( هذا التزوير المفضوح لها ) · على هذا الاساس وبالاستناد الى هذه النصوص يمكن وصل الماركسية بالتراث القيمي ، ويمكن اقامة ميتافيزياء اخلاقية ـ ماركسية ·

ان الهدف العام لا يدخل المعمل ليقول للعالم افعل هذا ولا تفعل ذاك . واقبل هذا ولا تقبل ذاك • ولا من شانه ان يعدل او يبدل النظرية العلمية بما يناسبه ، ذلك ان ما يحدد عمل العالم ـ كما في الاساس الثاني ـ هو دراسته للواقع المحسوس بأسلوب محسوس ، من دون اي اضافة اخرى •

وانما يأتي دور الهدف العام فيما يتلو ذلك • فيما بعد انشاء النظرية العلمية عن الواقع • عندها وبحسب الهدف العام نضع الاهداف المرحلية بحسب النظرية العلمية ، اي بحسب الواقع ، وباتجاه الهدف العام .

وبذلك فالفلسفة لا تعين خط العلم ومساره . ولا تحدد نظرياته. بل هي تضع له اتجاهه •

ذلك ان العلم بما هو متعادل القيمة والاتجاه ( القيمة والهدف) مثل الواقع الذي عبر عنه ، قابل لاضافة ما ينقصه ، قابل لحمل القيمة والهدف • وهذا هو اساس تبديل الوجود باتجاه الانسانية • وامتياز الماركسية الوحيد هنا ، هو انها تريد تبديل الوجود باتجاه الاكثرية ، باتجاه مصالح المعذبين والمستلبين حقوقهم ، لا باتجاه الاقلية ، باتجاه جلادي الشعوب كما كانت تفعل الايديولوجيات السابقة •

## ٤ ـ البرنامج يشتق من الهدف النهائي وبما يناسب الواقع :

الماركسية واللينينية في الاساس الاول مرشد عمل ، وفي الاساس الثاني هي علم مجرد ـ خالي من الغايات والقيم ـ وفي الاساس الثالث هي فلسفة ، هدف بعيد يقر الشيوعية ، وفي الاساس الرابع تلتقي الاسس السابقة على نحو جدلي فيصبح للعلم اتجاه ، **فتشتق من الهدف العام ، المثل الاعلى ، اهدافا مرحلية تتناسب مع ما وصل اليه العلم بتحليله لجميع مظاهر الواقع •**

مع هذا الاساس يتضح الفرق مع « الذاتيين » الذين اذا اهتموا بالانسان او بافكاره حسبوا انه يمكن تبديل الواقع بمجرد وضع اهداف عظيمة موضع التنفيذ، فاذا فشلوا ردوا الامر الى ضعف اخلاق البشر ونقص تربيتهم ، اي ردوه الى الافكار •

كذلك يتضح الفرق مع الانتهازية والاقتصادية ، الذين حسبوا ان الواقع غاني ، فالدراسة العلمية توضح ما يجب ان يكون . لان الاهداف يحددها الواقع فحسب بصورة موضوعية ، وبذلك يسقطون في مواقف انتهازية بعيدة عن الهدف النهائي ·

١ ) ان البرنامج لا يشتق من الهدف العام فحسب ، والا كنا طوبائيين ، وعلى نحو اكثر دقة ، كنا ادعياء ، وبتعبير لينين تتشكل الصبيانية اليسارية ·

٢ ) والبرنامج لا يشتق من الواقع فحسب ، والا كنا اقتصاديين وانتهازيين وفي كلا الحالتين ، يحدث انفصام بين القول والفعل · القول يلتزم بالماركسية اسما ، وفعلا يلتزم هؤلاء بايديولوجية البرجوازية المسيطرة ·

وانما يشتق البرنامج من الهدف العام ، كخطوة باتجاهه . تحددها الظروف الواقعية بكل ابعادها : الوضع الاقتصادي : نسب القوى المتصارعة ، التنظيم والوعي ·· الخ ·
ولما كان الواقع متبدلا ، فالنظرية العلمية متبدلة عنه ، ولذا فالبرنامج بالتالي يجب تبديله · وبالعكس فان البرنامج بحد ذاته تخطيط لتبديل الواقع ، وهو يبدل الواقع ، لذا فالضرورة تقتضي تعديل النظرية العلمية عنه ·

وهكذا نرى ــ اذا ــ الوجود جدلي ، فان اهم ما في هذا الجدل ، على المستوى الاجتماعي ، هو جدل البشر مع الوجود ، لتبديل البشر ، بافكارهم وببرامجهم، وبعلاقاتهم، ولتبديل الوجود، وتنظيمه علميا وهدفيا ليكون للانسان شيئا فشيئا ، حتى تتم السيطرة التامة عليه ، وذلك منتهى الكمال الذي يسعى اليه البشر كجزء من مثلهم الاعلى ·

لنعالج الاخطاء المرتكبة عند وضع البرنامج او التكتيك او الشعار او الهدف المرحلي · ولنلاحظ منذ البدء انه وان كانت الاخطاء نوعين ، فهما متصلان ومتشابكان . ويؤديان الى بعضهما، على الرغم من تمايزهما . ولا ننسى خلال ذلك ان الاتجاه نحو الواقع او نحو الهدف البعيد على حدة يشكل بحد ذاته خطأ في التحليل العلمي · كما لا ننسى ان معالجة الاخطاء المرتكبة هي

استمادة لكل ما مر معنا وتأكيد جديد على ما ذكرناه ·

**الخطأ الاول** : ويضع ممثله شعاره بحسب الواقع من دون ان ينظر الى الهدف العام ، وغالبا ما يكون فهمه للواقع مشوهـا وناقصا ·

وقد استعرضنا فيما سبق النزعة الاقتصادية التي وصلت الى ان الاقتصاد متأخر ، والثورة المقبلة برجوازية ، لذا حددت شعارها بالاصلاحات الاقتصادية · وقد رد لينين مفندا هـذا الشعار البرجوازي · نعم الثورة المقبلة برجوازية ، لكن الهدف يجب ان يكون توعية وتنظيم البروليتاريا ، مع فضح للحكم القيصري الجائر ، وفضح للبرجوازية المتكونة .

ومثال آخر، هو موقف كاوتسكي من الحرب العالمية ، اذ وجد في مبدأ « الدفاع عن الوطن » ذريعة ليوافق على الحرب ، وليقف بجانب رأسماليي دولته ·(١) · وقد ادان ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ هذا الموقف مما ادى الى انشقاق الحزب في المانيا ، وتشكيل عصبة سبارتاكوس (٢) · كذلك ادان لينين هذا الموقف، كتب : « ان افلاس الاممية الثانية قد تجلى بالغ الوضوح في خيانة اغلبية الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية الرسمية الاوروبية خيانة فاضحة لعقائدها وقراراتها الصريحة المدوية التي تبنتها في شتوتغارت وبال ··· » (٣) ·· « ان زعماء الاممية قد خانوا الاشتراكية حين صوتوا بالموافقة علىالاعتمادات الحربية ، ورددوا الشعارات الشوفينية ( الوطنية ) التي تنادي بها برجوازية بلدان « هم » ، وبرروا الحرب ودافعوا عنهـا ، ودخلوا الوزارات البرجوازية في البلدان المتحاربة ، الخ ·· الخ » (٤) · ان منطق

---

(١) راجع راي كاوتسكي في كراسة افلاس الاممية الثانية ص ٢٠ ( ١٩١٥ ) دار التقدم ·

(٢) راجع راي روزا في كتابات مختارة ص ١٦٩ وما بعدها · دار الطليعة ـ بيروت ·

(٣) افلاس الاممية الثانية ص ٧٠ ·

(٤) المختارات ٢/١ ص ٢٧٣ الحرب والاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية ( ١٩١٤ ) ·

كاوتسكي مؤسس على أن المانيا مهددة بالحرب ، فما هو موقف العمال ؟ يجب ان يقفوا ليحاربوا ضد الدولة المعتدية ونسي خلال رفعه هذا الهدف ، نسي الهدف العام ، نسي ان تأييد الحرب يعني تأييد ان يتقاتل كادحو الدول لصالح رأسماليها ، وان هذا لا يقدم اي فائدة للحركة الشيوعية ، بل على العكس انه ضربة قاضية لهذه الحركة . من هنا اتهام لينين لكاوتسكي بالخيانة ، موضحا الفرق بين الحرب الوطنية التي يمكن ان تؤيدها الحركة الاشتراكية ، بما هي حرب دولة مظلومة ، ضد دولة ظالمة . كما انه سعى في « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » الى بيان الخطأ الاساسي في تحليل الواقع عند كاوتسكي ، مبينا أن هذه الحرب ، هي حرب الدول الامبريالية في سعيها لاقتسام العالم .

ومثال ثالث ، هو راي محللي الواقع الروسي ، والذين توصلوا الى ان روسيا لم تنضج للثورة ، لذا يجب على البلاشفة ان لا يستلموا السلطة . « .. ان مارتوف يبرهن ( وكاوتسكي يردد في اثره ) ان روسيا لم تنضج بعد للاشتراكية ، ينجم عن ذلك بصورة طبيعية انه لم يئن الاوان لتحويل السوفيتيات من هيئات للنضال الى منظمات للدولة (١) و « يقول الرفيق ريكوف انه ينبغي ان تأتي الاشتراكية من بلدان اخرى لها صناعة اكثر تطورا . ولكن هذا ليس صحيحا . فلا يمكن القول من ذا الذي سيبدأ ومن الذي سينجز . ليس هذا بماركسية ، بل هو صورة هزيلة للماركسية . لقد قال ماركس ان فرنسا ستبدأ والمانيا ستنجز . ولكن الواقع ان البروليتاريا الروسية قد توصلت الى اكثر مما توصل اليه احد ما . » (٢) . وقد اهتم لينين برد هذا الرأي الاهتمام الكبير ، من ذلك قوله : « .. وهكذا نراهم يستشهدون بذريعة في اقصى الابتذال حفظوها غيبا خلال تطور الاشتراكية ـ الديمقراطية في اوروبا الغربية ، وقوامها القول اننا لم ننضج للاشتراكية ، واننا لا نملك المقدمات الاقتصادية الموضوعية للاشتراكية حسب تعبير

---

(١) المختارات ٣/١ ص ١٢٢ الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي (١٩١٨) .
(٢) المختارات ٢/١ ص ١٢٦ المجلس العام السابع لـ ح . ع . ا . د . ر ( ١٩١٧ ـ نشر ١٩٢١ ) .

بعض السادة من علمائهم · ولا يخطر على بال احد ان يتساءل : اذا ما جابه شعب وضعا ثوريا كالوضع الذي تبدى لدن الحرب الامبريالية الاولى ، أليس بوسع هذا الشعب ان يندفع ، تحت طائلة حالة لا مخرج منها ، الى خوض نضال يوفر له ولو بعض الامل بالظفر بشروط غير مألوفة تماما من أجل تطوير مدنيته ؟ » (١).
ولذا أدخل الموضوع في قرار حزبي : « تعتبر اللجنة المركزية ان المعارضة التي تكونت داخل اللجنة المركزية تنحرف كليا عن جميع المواقف الاساسية للبلشفية وللنضال الطبقي البروليتاري على العموم ، وتكرر الكليات غير الماركسية اطلاقا حول استحالة الثورة الاشتراكية في روسيا وحول ضرورة التراجع ، انذارات وتهديدات تطلقها اقلية بينة من المنظمة السوفياتية بالتنحي جانبا ··· » (٢) ·

في جميع هذه الامثلة ، وسواها ، نجد ان الخطأ مرتكب لكون اصحابه ينظرون الى الواقع فحسب ، ونتيجة لذلك يضعون اهدافهم ، واذا بها اهداف تعارض الهدف العام ، وتوصل الحركة الاشتراكية الى تبني اهداف اعدائها · في جميع الامثلة نجد ان النتيجة هي ابعاد الهدف العام ، والركوع للواقع ، اي الركوع للبرجوازية ، والتمتع الرحب بصفة الانتهازية · انهم ماركسيون قولا ، وانتهازيون ، عبيد للبرجوازية فعلا ·

ان هذا الخطأ يوضح المعيار ، وهو الالتزام بالهدف العام بما يتناسب مع الواقع ، وهذا المعيار يكشف الانتهازية ( خاصة في بلادنا الان ) والذين يصرخون مرددين الاهداف العامة ، على حين انهم غارقون بما هو نقيضها ، مبررين ذلك بدعوة يحسبونها تمسح العيوب وتغطي التلاعب ، قائلين : ان هذا كله تكتيك ، ودليل ذلك اننا نؤمن بالهدف العام ، بيد ان دليل الايمان بالهدف العام ، هو اشتقاق الهدف المرحلي ، والتكتيك منه ، لا الركوع للظروف والواقع لتبرير الانتهازية والجبن ولوضع الهدف العام في السماء ·

---

(١) المختارات ٣/٢ ص ٤٧٠ حول ثورتنا ( ١٩٢٣ ) ·
(٢) المختارات ٢/٢ ص ٣٣ قرار اللجنة المركزية للحزب ( ١٩١٧ ) ·

كتب لينين : « اذكر ان نابليون قال : اولا يدخل المرء معركة جدية ثم ··· يرى » (١) وهؤلاء يقولون : الواقع ، الظروف ، الموضوعية ، ليهربوا من المعركة الجدية ، وليستسلموا للواقع وللظروف ·

***

**اما الخطا الثاني** : فهو نقيض الاول ، يصرخ اصحاب الخطأ الاول ، الظروف ، الواقع ، ويصرخ اصحاب الخطأ الثاني : المبدأ، الهدف العام · مع ذلك يلتقي الاصحاب كلهم بعيدا عن المعركة الجدية ، بل وليحاربوا في الصفوف الاخرى ·

المثال الاول ، وفيه نرى الهدف العام ، وقد اتخذ شكل مبدأ عام ينص على ان نجاح الثورة الاشتراكية مرهون بعالميتها · فما هو موقف لينين من هذا ؟ قال :«·· واذا نظرنا على الصعيد العالمي التاريخي ، فانه لا سبيل لذي شك بان انتصار ثورتنا النهائي سيكون ميؤوسا منه اذا بقيت وحيدة ، اذا لم تقم حركة ثورية في البلدان الاخرى ·· » (٢) لكن : « لا ينبغي تحويل هذا الشعار الكبير : « اننا نعلق الآمال على انتصار الاشتراكية في اوروبا » الى مجرد جملة فارغة · وهذه هي الحقيقة ، اذ لم يغب عن انظارنا ذلك الطريق الطويل الشاق ، طريق انتصار الاشتراكية النهائي · وانها لحقيقة فلسفية وتاريخية لا جدال فيها ، اذا ما القينا نظرة شاملة على « عهد الثورة الاشتراكية » بمجموعه ، ولكن كل حقيقة مجردة تغدو جملة فارغة اذا طبقت على كل وضع ملموس · » (٣) · وبالنتيجة : « ·· حين يقولون لنا ان انتصار الاشتراكية غير ممكن الا على النطاق العالمي ، فاننا لا نرى في هذه الاقاويل سوى مناورة ، يائسة جدا تقوم بها البرجوازية وانصارها الواعون وغير الواعين من اجل تشويه الحقيقة الساطعة التي لا

---

(١) المختارات ٣/٢ ص ٤٧٢ حول ثورتنا ( ١٩٢٣ ) ·

(٢) المختارات ٢/٢ ص ١٦٦ المؤتمر الاستثنائي السابع للحزب ١٩١٩ ·

(٣) المختارات ٢/٢ ص ١٤٥ درس قاس ولكنه ضروري ١٩١٨ ·

جدال فيها على الاطلاق » (١) · وهكذا فان انتصار الثورة في روسيا ، يخدم الثورة الاشتراكية العالمية ، مما يثيره من حماسة لدى الجماهير في جميع البلدان ·

والمثال الثاني ، يوضح هذه « الصبيانية اليسارية » التي تتعلق بالهدف العام ، ولا تنظر الى الواقع · طرح لينين صلح بريست لانه وجد ان بلاده لا تستطيع متابعة الحرب ، فقد دمرت بلاده ، وهي على ابواب المجاعة ، فوقف اليساريون المتطرفون ليعارضوا الصلح (٢) ، وانتصر رأي لينين ، ووقع الصلح المجحف وبدأ البناء، ثم اعترف بوخارين وسواه بخطأهم ، « فقد تراءى لهم ان صلح بريست هو مساومة مع الامبرياليين غير جائزة مبدئيا ومضرة بحزب البروليتاريا الثوري · وقد كان ذلك في الواقع مساومة مع الامبرياليين ، لكنها كانت في ذلك الظرف بالذات مساومة لا مناص منها » (٣) ، ووضح ان هؤلاء يحفظون عن ظهر قلب شعارات الثورة اكثر بكثير مما يتأملونها (٤) · ومثال آخر من كتاب « الصبيانية اليسارية يوضح الامر على نحو افضل ، طرح لينين شعار راسمالية الدولة ، وبين كيف ان هذا الشعار هو خيانة للاشتراكية من وجهة نظر هؤلاء ، ليرد بان الواقع يفترض هذا الشعار (٥) ·

والمثال الثالث نأخذه من « مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية » وهو يدور حول جمود الاطفال اليساريين حول المبدأ ، ويقابله لينين بشعار المرونة والمساومة بحسب الظروف الملموسة · قالوا لا اشتراك في برلمانات رجعية ، وقالوا لا عمل في نقابات رجعية ، ولا تعامل مع البرجوازيين الصغار · ويطرح لينين نقيض كل هذا بحسب ما يمليه الواقع الملموس . من هنا حديثه عن عدم الجمود ، والمرونة والمساومة · كتب : « ·· يستحيل بناء

---

(١) المختارات ٢/٢ ص ١٣٠ المؤتمر الثالث لسوفييتات نواب العمال ·· ١٩١٨·

(٢) و (٤) المختارات ٢/٢ راجع ص ٢٩٨ ـ ٣٠٦ حول الصبيانية اليسارية ··· ١٩١٨ ·

(٣) المختارات ٣/١ ص ٤٨٤ مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية ١٩٢٠ ·

(٤) المختارات ٢/٢ ص ٣١٠ حول الصبيانية اليسارية ·

(٥) نفس المرجع السابق ·

تاكتيك ثوري على الروحية الثورية وحدهــــا . يجب ان يتأسس التاكتيك على حساب دقيق وموضوعي صارم لجميع القوى الطبقية في الدولة المعنية ( والدول المحيطة بها ، وجميع الدول في المجـــال العالمي ) وكذلك على حساب تجربة الحركات الثورية (١) ووضح خطه: « ينبغي الجمع بين الاخلاص الشديد لمبادىء الشيوعية وبين المقدرة في الاقدام على جميع المساومات العمليـــة الضرورية ، والمناورات والاتفاقات واللف والتراجع وما الى ذلــك .. » (٢) . و « .. يجب على الطبقة الثورية من اجل تحقيق مهمتها ، ان تضطلع بجميع النشاط الاجتماعي وتواجه دون استثناء اي كان.. والثاني ، انه يجب على الطبقة الثورية ان تكون على استعـــــداد لتنتقل باتم السرعة والمفاجأة ، من شكل الى شكل آخر » (٣) مقابل اليسارية المتطرفة التي لا تعرف الا طريقا وحيدا ، وبذلـــك رأى لينين ان العقائدية اليسارية خطأ مثل العقائدية اليمينية (٤) لان نفي المساومة مبدئيا وعامة هو صبيانية يتعذر قبولها كأمر جدي ، وهو امر سخيف (٥) .

وهكذا نجد من الامثلة السابقة ، ان وضع البرنامج او التكتيك، بحسب الهدف العام من دون نظر في الظروف الواقعية يولـــــد الصبيانية ، يولد الجمود ، وعدم القدرة على فهم الواقع والتصرف به ، ومما يؤدي الى وضع شعارات واهداف مرحلية غير منسجمة مع الواقع ، وبالتالي الانعزال عن الجماهير ، والابتعاد عنها والسير وراء سراب غير مجد .

وبذلك يتضح ضرورة اخذ الواقع بعين الاعتبار ، مثلما اتضح ضرورة اخذ الهدف العام ايضا .

---

(١) المختارات ٣/١ ص ٥١٥ مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية عام ١٩٢٠.
(٢) المرجع السابق ص ٥٥٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٥٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣ .
(٥) المرجع السابق ص ٤٨٥ و ٥٢١ .
وكمثال اخر نقاش لينين في حق الامم في تقرير مصيرها : راجع ٢/١ مــن المختارات .

أجمل لينين الخطأين السابقين في حديثه عن الضريبة العينية برده على بوخارين ، قال :

« فاننا من جهة لنرتكب خطأ لا علاج له اذا ما صرحنا انه ما دام انعدام التناسب بين قوانا الاقتصادية وقوتنا السياسية امرا ثابتا ، لم يكن ينبغي بالتالي اخذ السلطة · فتلك محاكمة « رجال معلبين » ···

« ومن الخطأ البين من جهة اخرى ، افساح مجال العمل امام الصياحين ومنمقي الجمل ، الذين يؤخذون ويفتتنون بالثورية « البراقة » ولكنهم عاجزون عن القيام بعمل ثوري دائب ، عاقل ، موزون ، يحسب الحساب لأصعب الاطوار الانتقالية ·(١) ·

لاهذا ، ولا ذاك ، وانما علاقة جدلية بين الواقع والهدف العام نستخلص منها نتيجة لذلك برنامجا يحسب حساب الواقع ، ويتجه نحو الهدف العام ·

وبذلك تترابط الاسس السابقة ، فالنظرية او الهدف العام مرشد، بحسبه نحلل الواقع ونستخرج نظرية علمية · وبحسب هذه النظرية وبحسب الهدف العام نضع هدفنا المرحلي ·

لكن يبقى كل هذا ناقصا ، ولا يتمه الا الاساس الخامس ، وهو العمل لا القول ، وبه يتحول الهدف المرحلي او البرنامج الى قوة مادية تبدل الواقع وتبدل نفسها نتيجة لذلك · وعلى هذا النحو تتكامل اسس اللينينية ( والماركسية ) كفلسفة وكعلم وكعمل ، للوصول بالانسان الى حريته وكرامته ·

***

ان هذين الخطأين يوضحان مفاصل العلاقة بين العلم والفلسفة ، وجدلية هذه العلاقة · وهنا بالذات يتضح هذا الاصرار الماركسي

---

(١) المختارات ٣/٢ ص ٢٤٠ عن الضريبة العينية ( ١٩٢١ ) · اعتبر لينين بروليتاريا روسيا متقدمة بقوتها السياسية على اوروبا ومتاخرة عنها اقتصاديا · وهذا ما يعنيه بعدم التناسب ·

على الديالكتيك ، بما هو حوار اي تفاعل وتداخل ونمو داخلي · وهنا بالذات يتضح مفهوم الانسان ـ الذات ـ الفرد ، والذي يخرف حسب اعتقاد بعض نقاد الماركسية وبحسب اعتقاد بعض السطحيين ممن يجرون وراء العربة · يتضح مفهوم الانسان ، بما هو مجادل للوجود ، ومتفاعل معه وفيه ، ومتطور معه وفيه ، بما هو اداة تبديل الوجود وجعله وجودا يتجه الى غايته ·

الخطأ الال يضع جانبا الهدف العام ، وبالتالي الانسان ، وينصاع للظروف ، فهي كل شيء فيه · من هنا يرفع أصحابه شعارات محددة بحسب ما يتبدى من الواقع آنيا · فمثلا يطالبون باصلاحات جزئية معينة ·

ولسنا ضد المطالبة بالاصلاحات الجزئية ، فيما لو كانت تنبع من رؤية شاملة للواقع وللهدف البعيد · بيد ان هؤلاء لا يرون من الواقع الا الجزء فحسب ، كما انهم يبعدون الهدف لانه بعيد ·

ونستطيع (في ايامنا هذه ، في بلادنا) ان نرى نموذجا لهذاالخطأ، في هذا النقد المكرر في الاذاعة والمسرح والصحف · والتي تتجه الى مواضيع جزئية محللة وناقدة مبينة الاخطاء والتجاوزات ، في كل يوم ·

وبحسب هذا المثال الواقعي يمكن ان نتبين ما في هذا الخطأ من جوانب :

انهم يبتعدون عن الاساس الحقيقي للمشاكل كلها التي تسبب النقد ، ويحولون القضية الى افراد مخطئين ، كسالى ، مرتشين ، لا ضمير لهم · فكأن الوضع سليم ، والقانون أسلم ، انما القضية مجرد مخالفات من قبل افراد معدودين ·والحل عند هؤلاء ـ بالتالي ـ مجرد طلب اصلاحات سطحية ، مثل معاقبة هؤلاء الافراد · ومثل رفع الظلم عن افراد آخرين ، من دون بحث في الاسباب الحقيقية ومن دون طرح للحلول الصحيحة ·

وقد ينجح النقد في الوصول الى بعض الاصلاحات فعليا ، بيد ان هذه الاصلاحات لا يمكن لها ان تنهي المشاكل ، ما دام النقد لم يتعمق دراسة الواقع وما فيه من مسببات عميقة للاخطاء · ولذا

فبدلا من ان تنتهي المشاكل نراها تزداد وتتسع دائرتها ، وبالتالي يتفاقم الاحتجاج ويعلو النقد الصارخ من دون جدوى ·

بيد ان مثل هذا النقد ـ بما هو فعل مخطط له مسبقا ـ ينجح بالتنفيس عن المشاعر ، وينجح في اطفاء الثورة المتصاعدة عند المترددين وغير الواعين لوضعهم الطبقي ، وينجح بابعاد هؤلاء عن الاسباب الحقيقية ، ويضيعهم في دوائر متقنة الرسم ، لكنها جوفاء· كما انه ينجح بابعاد هؤلاء عن رؤية آلحلول الصحيحة التي يجب عليهم ان يتجهوا اليها ·

ان اي سلطة مستعدة للتسامح مع مثل هذه البرامج ، ما دامت لا تمس سلطانها بل ومستعدة لتشجيع هذا النقد ما دام يتجه الى سواها ·· ومستعدة بالتالي لتنفيذ ما تراه مناسبا من الاصلاحات الجزئية وغير الضارة ما دامت مثل هذه الافعال ستجر عليها فيما يتلو المديح والتأييد ·

وليس عبثا ان تكتشف السلطة هذا « السيف » الجديد ، لتحارب به ، وبكل فرح ولذا فليس عبثا بالتالي ، ان يسقط الراكعون للظروف تحت وطأة الظروف وتحت اقدام السلطة ·

وهو ما نراه امامنا !

ان البرنامج ليس انصياعا للواقع ، ولا يكون بفتح خمارات تنشد نشيد السلطة والمستغلين · بل هو وعي للواقع ، ووعي لنواقصه ، ودعوة لتبديل هذا الواقع ، ولالغاء نواقصه · وهذا لا يكون الا اذا استرشدنا بالهدف العام ، بما يتلاءم مع الواقع ، ومع نظريتنا العلمية عنه ·

من هنا لا يمكن ان نردد بحرفية « الهدف العام ، الهدف العام » مطالبين بتحقيقه فورا ، ومباشرة ، من دون اي اعتبار للواقع ولعناصره ولقواه ولنسب هذه القوى ، بل لا بد من صنع الجدل المستمر لوضع الاهداف المرحلية على طريق الهدف العام ، وبما يتناسب مع الواقع ·

قد تبدو الصبيانية ، مجرد صبيانية غير واعية ، تعطي للافكار وللذاتية قدرا كبيرا ، مضخمة هذه القوى على حساب الظروف

الموضوعية · بيد ان الامر أبعد من ذلك · اذ ليس المهم مناداتـــي بهدف ما كمثل اعلى ، بقدر ما المهم كيف ترجمت هذا الهدف الى افعال واقعية · كيف فهمت هذا المثل وكيف تمثلته عملا يوميا ؟ عندها

**يتبين لنا انزلاق هذه الصبيانية الى الخط الآخر المعادي لتكون**

**يتبين لنا انزلاق هذه الصبيانية الى الخط الاخر المعادي لتكون**

**سلاحا اخطر في صدر الثورة ، وهو ما تنقاد اليه دوما معرقـلة المسيرة بالمزايدات الكلامية ، ومعرقلة المسيرة بالانضمام الى اعداء الثورة عمليا ·**

على هذا النحو ، وخوفا من المثاليات المخادعة ، والكلام حبا بالكلام قيد ماركس حديثه عن المثل الاعلى ، وجعله نتفا قليلة هنا وهناك · وانصب عمله على تحليل الواقع الملموس ، راسما مرة تلو مرة البرنامج المناسب بحسب الهدف العام وبحسب امكانيـــات الواقع · اذ المهم بالدرجة الاولى البرنامج اليومي ، الهدف المرحلي وبذا فمن لا يفهم هذا البرنامج ، فهو بعيدا جدا عن الهدف العام ، مثلما هو ابعد عن الواقع ·

وعلى هذا النحو يمكن ان نرد التساؤل الى وضعه الصحيح ، وذلك عندما يتعجب بعضهم ، كيف نحارب ايديولوجيات تدعو لاهداف عامة ولمثل عليا · تدعو للخير وللحب وللمساواة وللاخوة وللاخلاق النبيلة والسامية .. الخ ؟ مما يؤدي الى عمليات التلفيق والتوفيق ·

نرد التساؤل باحالته الى السؤال الحاسم حول الصبيانية ، كيف تجلت تلك المثل العليا على ارض الواقـــع ؟ كيف فهمت تلـــــك الايديولوجيات الخير والاخلاق في برنامجها الواقعي ؟ كيف ترجمت دعواتها الى قوانين ، وكيف ترجمت اقوالها الى اعمال وافعال ؟

ان الاجابة على مثل هذه الاسئلة ، يضع قضية الهدف العام والمثل العليا في الايديولوجيات السابقة في موضعها الصحيح بعيدا عن التزوير ، اذ المهم كيف تجلى القول فعلا ، لا كيف تجلى حروفا ·

والامر نفسه بالنسبة للذين يصرخون من وراء الكتب الماركسية: الهدف العام ·· الهدف العام · لنرى الاعمال · وعندها نكتشف التزوير والخداع ·

اذن فليست القضية معارضة الهدف العام بالظروف الموضوعية كما يحسب بعضهم ، وليست محاربة للمثل العليا للانسان · بل

القضية كيف نوائم بين الهدف والواقع فنشتق اهدافا تلو الاهداف باتجاه المثل الاعلى · والقضية ان نفهم كيف ترجم الانسان في ظرف محدد مثله الاعلى الى اهداف مرحلية ، وبالتالي ان نناقش هذه الاهداف لرؤية مقدار اقترابها او ابتعادها عن الهدف العام · وبذلك نضع معيارا يفرق بين الكلام كقول وكفعل ، مثلما وضعنا المعيار الفاصل بين العلم والفلسفة ·

ان الطريق الى الهدف العام يمر بهذه الارض عبر ظروف محددة وبواسطة بشر ذوي نزعات مختلفة ، ولا طريق آخر ·

## ٥ ـ العمل الهادف :

الماركسية فلسفة العمل ·

في الفلسفة القديمة نجد المنطلق الخاص بها « في البدء كانت الكلمة » أو الفكرة الطلقة أو العقل أو الله ·· الخ · وفي العصر الحديث ، كشف غوته عن المنطلق الخاص به اذ قال « في البدء كان العمل » · ومع المادية نجد ان المنطلق أصبح « في البدء كانت المادة » · فما هو موقف ماركس ؟

وضع ماركس في رأس المال ثنائية المادة والعمل · وفي رده على فيورباخ ركز على العمل لتصحيح المادية · بيد انه ركز على الهدف ( الافكار الانسانية ) ساخرا من شعار جوته ·

## كتب ماركس ضد فيورباخ :

« ان العيب الرئيسي للمادية السابقة كلها ـ بما فيها مادية فيورباخ ـ هو ان تصور الشيء ، الواقع ، الحسية ، لا يتم فيها الا على صورة الموضوع او المشاهدة ، وليس على اعتبارها فاعلية انسانية حسية ، على اعتبارها ممارسة ، ليس بصورة ذاتية · (١)

وكتب انجلز عن دور العمل ( الجهد ) في تطور الانسان :

« يؤكد علماء الاقتصاد السياسي أن الجهد مصدر الثروة جميعا · وانه بعد الطبيعة التي تؤمن له المادة التي يحولها الى ثروة ، هو حقا المصدر · لكنه وبصورة مطلقة ايضا ، اكثر من

---

(١) ( اطروحات ) عن فيورباخ : الفرض الاول · في نهاية كتاب انجلز عن فيورباخ : ت فؤاد ايوب · دمشق ·

ذلك · انه الشرط الاساسي الاولي للوجود البشري جميعه ، وهذا - باعتماد تفسير آخر - يحملنا الى القول أن الجهد خلق الانسان نفسه » · (١)

وفي رأس المال ، رد ماركس قيم الاستعمال الى العمل والمادة ، كما رد قيم التبادل الى العمل وحده · (٢) وفي هذا الكتاب سخر من جملة جوته ، فكتب عن المبادلين : « ومبادلونا في ارتباكهم ، يفكرون مثل فاوست : في البدء كان العمل ، ولذلك فقد تصرفوا فعلا قبل ان يفكروا ·· » (٣) · وسوف يتبعه لينين ناقدا برنشتين عندما كتب : « ان كلمة برنشتين المجنحة « الهدف النهائي ليس بشيء ، الحركة هي كل شيء » ، تعبر عن طبيعة النزعة التحريفية خيرا من عدد كبير من الشروحات المستفيضة » (٤) ذلك أن ماركس ومن بعده لينين ، رأى ان العمل مسبوق بالافكار والاهداف ، ولذا قال - ماركس - « ·· ولكن ما يميز أسوأ مهندس عن أخبرنحلة منذ البداية ، هو انه يشيد الخلية في رأسه قبل أن يشيدها في القفير ، فالنتيجة التي يؤدي اليهآ العمل موجودة مثاليا ، مسبقا ، في خيال العامل ، لا لانه يحدث تبدلا في المواد الطبيعية فقط ، بل لانه يحقق بالفعل ذاته هدفا خاصا يعيه ويحدد اسلوب تصرفه كقانون ، ويجب ان يخضع ارادته له » (٥) ·

لقد كانت مهمة ماركس مزدوجة ، اذ كان عليه أن يواجه المثالية التي تحيل الوجود والتطور الى الكلمة ، وكان عليه أن يواجه المادية التي تحيل الافكار والتطور الى المادة ، وفي كلا الحالتين وضع اطروحة العمل كرد حاسم على هيجل وعلى فيورباخ ، متجاوزا الاثنين معا باتجاه فلسفة العمل ·

في المجتمع الانساني ، لا نجابه مادة مستقلة ، بل نواجه انتاجا انسانيا ( مادة مصنوعة = مادة + عمل ) · وقد اهتمت المثالية

---

(١) جدليات الطبيعة : انجلز ٢٣٦ ت : محمد اسامة القوتلي · دمشق ·

(٢) راجع بحثنا السابق نحو فهم الماركسية - فصل علم العمل ·

(٣) رأس المال ك ١ ج ١ ص ١٤٤ ط ٢ ترجمة انطون حمصي · دمشق ١٩٧١·

(٤) المختارات ( لينين ) ١/١ ص ٩٣ الماركسية والنزعة التحريفية ١٩٠٨ ·

(٥) رأس المال ك ١ ج ١ ص ٢٨٢ ·

بالعمل ( وبالاحرى الجانب الذاتي من العامل ) بصورة مجردة ، وكرد على ذلك طلب فيورباخ المادة بصورة متميزة عن الافكار . ويرد ماركس بان الفعالية الانسانية هي فعالية موضوعية · ولذا لا يمكن ان نرد البشر كنتاج للظروف وللتربية ، ذلك أن البشر هم الذين يغيرون الظروف ، وهناك توافق في تغيير الظروف وفي الفاعلية الانسانية · حتى عندما نقتصر على نظرية المعرفة ، والتي أرادها فيورباخ حسية ، نسي ان هذه الحسية بمثابة فاعلية عمليه حسية انسانيه (١) ·

وكتصحيح لما يتبادر للذهن عن أهمية العمل ، وطبيعته المجردة ، وضد فاوست جوته ، ربط ماركس العمل بالفكر ، كامتياز انساني ، فالافكار عندما تغدو عملا ـ عندما تستولي على الجماهير ـ تصبح قوة مادية · تصبح أداة لتبديل الواقع · وبذلك أحكم ماركس ربط هذه العناصر ببعضها · فضد المثالية ، الافكار لا تعني شيئا ، مالم تعبر عن اماني الجماهير ، ومالم تتبناها ، مالم تحولها الى عمل يبدل الوجود ، ومن دون ذلك مجرد كلام لا يعني شيئا · وضد المادية رأى ان المادة نفسها من صنع الانسان ، فلا يمكن تفسير الوجود من دون أن ندخل آثار الفاعلية الانسانية ، فلا يمكن تفسير يتغير بفضل هذه الفعالية الهادفة · وفي كلا النقدين يظهر العمل ليصحح فيعلاقات جدلية ، توضح بصورة كاملة اهتمام ماركس بالديالكتيك وكيفية فهمه له ، وكيفية ادخاله في تفسير التراكيب المعقدة في المجتمع الانساني ·

وهكذا نجد كبديل عن ذاك التبسيط الباحث عن العنصر الاولي ( البدني ) ، نجد كشفا للعلاقات الجدلية في المجتمع الانساني ، وبحسبها نتفهم طبيعة هذا المجتمع ( فيكون لدينا العلم ، وبحسبها نتفهم كيفية تبديل هذا المجتمع ، بوضع الاهداف الصحيحة ( فتكون لدينا الفلسفة ) · وواسطة العقد هو العمل ·

نعم في البدء كانت المادة ، وقبل أن يكون الانسان · لكن مع وجود الانسان دخل العمل الهادف ، اي دخلت الافكار · وكل تفسير للمجتمع الانساني يجب ان يرى هذه العلاقات المتكاملة : عناصر موضوعية ( الوجود المادي وتجلياته ) والعناصر الذاتية

---

(١) راجع اطروحات عن فيورباخ : الاطروحة رقم ١ و ٣ و ٤ و ٥ ·

(الافكار والعمل ) · لكن هذه الرؤية لا تمسك عناصـــر مجردة ، منعزلة عن بعضها ، بل تكتشف العناصر في علاقاتها الجدليــة · لذا فالمادة ، بل وما هو انساني ينكشف في علاقاته الاجتماعيــة ، كتاريخ اجتماعي محدد · وبالتالي ـ بعد التفسير ـ تبني الفلسفة الاهداف المرحلية انطلاقا من هذه العلاقات الجدلية والاجتماعية ·

وبذلك فامتياز ماركس عن المثالية بكونها ربطت الافكـــار بالعمل ، وامتياز الماركسية عن المادية بكونها ربطت المـــادة بالعمل . وامتياز الماركسية عن البراجماتية كونها جعلــت العمل هادفا · وفي كل امتياز نجد القضية هي العمل ، الا يحق لنا بعد ذلك اعتبار الماركسية فلسفة العمل الهادف ؟

وفيما سبق تحدد العمل بصورته الكلية ، اي بشكله الواقعي والتاريخي . بما هو صفة الانسان الاولى كمنتـــج ، وبما هو فعل يقترن المادة فيتحد بها ويتكون نتيجة لذلك المجتمع الانساني ، بحيث ان تتبع العمل يكون تاريخ الحضارات · مثلما يقدم لوحة علمية عن اي مجتمع في اي ظروف ·

وهذا هو المعنى الاعم للعمل ، والذي توصل اليه ماركس نتيجة لتحليل واقع الرأسمالية بما هي سرقة للعمل المستلب ( سرقـــة فائض القيمة ) · وذلك برده القيم والتراكم الى العمل بالدرجـــة الاولى · ولذلك بنى كل أهدافـــه ( فلسفتـــه ) على الغاء هـــذا الاستلاب للعمل ، لتحرير الانسان من ضياعه ولاستعادة كرامتـــه وانسانيته ، وذلك بالعمل أيضا ، وللوصول الى غاية تخص العمل أيضا ، للوصول الى جعل العمل حاجة أولى ، للوصول الى العامل المحرر والذي يعمل تلقائيا ، للوصول الى العامل كانسان المستقبل ·

عبر هذا نفهم العمل كصانع للافكار وكمنتج لها ، وكصانـــع للواقع وكمبدل له ، ونفهمه كمعيار للافكار يصححها ويثبت مدى صدقها ، ونفهمه كتطبيق لها · (١)

فما هو موقف لينين ؟

ان جوهر اسهامه في الماركسية هو تأكيده على العمل الهادف ،

---

(١) للاسف لم يفهم العمل الا كتطبيق للافكار ، وبذلك مسخت هذه الاطروحة مسخا يلغي الماركسية ويلغي الجدل لحساب المادية المؤلهة !

لانه عبر هذا الاساس انما ينص صراحة وضمنيا على كل ما سبق • وفي الحقيقة نجد أن كل ما سبق من أسس أنما تلتقي في حلقةكاملة حول هذا المحور •

وقد نقلت فيما سبق ( عند دراسة الاساس الثالث : الهدف العام آراء لينين التي فيها نمى فلسفة ماركس • فهدف الشيوعية هو الوصول الى العمل كحاجة أولى ، والوصول الى الغاء الفرق بين العمل اليدوي والفكري • ونكتفي هنا بالتذكير بفكرته عن أن ديكتاتورية البروليتاريا تحقق •• بالقياس الى الرأسمالية ، النموذج الاعلى لتنظيم العمل في المجتمع » • (١) ومعنى هذا هو تحرير العمل وانتصاره أي انتصار انسانية الانسان على صنمية البضاعة « لقد انتصرت الرأسمالية في العالم بأسره ، ولكن هذا الانتصار ليس سوى المقدمة لانتصار العمل على الرأسمال » • (٢)

وهكذا يرتفع لينين بالعمل ليجعله رديفا لكلمة انسان ، كيف لا والغاية الاساسية ازاحة التراكمات التاريخية المعوجة ، لكشف بنية الانسان بما هي حاجة أولى للعمل ، للعمل الهادف • من هنا كونه ذكر ان الماركسيين الروس اعتقدوا « ان العامل هو انسان المستقبل » (٣) •

هكذا فهم لينين العمل الهادف بصيغته الكاملة ، ونتيجة لذلك ، وبحسب الظروف التي عاشها ، ناضل من أجل العمل ، ليضعه في موضعه الصحيح • ناضل ضد المؤمنين بالعمل التلقائي والعفوي ، وناضل ضد المكتفين بالاقوال من دون العمل ، ورد ليقرن القول بالعمل مرة أخرى • وقد كررنا الحديث عن النضال الاول بما فيه الكفاية فلننتقل الى النوع الثاني •

النضال الثاني موجه ضد كل الذين يقعون في المثالية وهم يرددون الاقوال الماركسية • ذلك أن المهم عدم الاكتفاء بالتعابير والالفاظ ، بل مقارنة الافعال بالاقوال ولذلك وضع لينين قوله

---

(١) المختارات ٢/٣ ص ٣٠٣ المبادرة الكبرى ( ١٩١٩ ) •

(٢) المختارات ١/١ ص ٨٢ مصادر الماركسية الثلاثة ( ١٩١٣ ) •

(٣) مجموعة في الادب والفن ج ١ ص ١٤٧ الاشتراكية البرجوازية الصغيرة والاشتراكية البروليتارية ( ١٩٠٥ ) •

« أقل من الجمل الطنانة ، واكثر من العمل البسيط اليومي » (١) ذلك ان « مبتذلي الماركسية هؤلاء لم يتأملوا قط كلمات ماركس حول ضرورة الاستعاضة عن سلاح النقد بنقد السلاح · وعبثا يتذرعون باسم ماركس ، فهم يدبجون في الواقع قرارات تاكتيكية مفعمة كليا بروح ثرثاري فرانكفورت البرجوازيين ··· دون أن يدركوا ان زمن الثورة هو زمن العمل ، العمل من القمة ومن القاعدة في آن واحد » (٢) وذلك « لان الاممية ليست في الجمل ولا في الاعراب عن التضامن ، لا في القرارات بل في العمل » (٣)

ان اصحاب هذه الماركسية الكلامية يشكلون تيارا انتهازيا ، « هو الاشتراكية قولا والشوفينية فعلا (٤) · بمعنى الخضوع لمصالح البرجوازية والدول الرأسمالية . ولذا كتب عن كاوتسكي بانه « قد برع في فن أن يكون ماركسيا بالاقوال وخادما ذليلا للبرجوازية بالافعال (٥)

لذا ، فكما انه يجب ربط العمل بالنظرية العلمية وبالهدف الشيوعي ( الوعي ) لا بد من الانتقال من القول الى الفعل الهادف ، بالتنظيم ، وبالدعاية ، وبالتحريض ثم وبالثورة · حتى وبعد القيام بالثورة لا بد من تلازم القول والفعل للوصول الى العمل المحرر كهدف · ذلك انه « من افدح الشرور ، ومن اسوأ المصائب التي خلفها لنا المجتمع الراسمالي القديم ، القطيعة التامة بين الكتاب والحياة العملية ·· ولهذا كان من فادح الخطأ الاقتصار على استيعاب ما هو وارد في الكتب حول الشيوعية. فان خطاباتنا ومقالاتنا ليست ، اليوم مجرد تكرار لما كان يقال فيما مضى عن الشيوعية · اذ ان خطاباتنا ومقالاتنا مرتبطة بعملنا اليومي ، بالعمل في جميع الميادين .. (٦) وبعد أن يبين ما يجب أن نتعلمه ،

---

(١) المختارات ٣/٢ ص ٣١٣ المبادرة الكبرى ( ١٩١٩ ) ·

(٢) المختارات ١/٢ ص ١٠٠ خطتا الاشتراكية الديموقراطية ··( ١٩٠٥ )·

(٣) المختارات ٢/١ ص ٥٢٢ الازمة نضجت (١٩١٧ )·

(٤) المختارات ٢/١ ص ٣٧٤ الدولة والثورة ( ١٩١٨ ) · الآن ابتذلت كلمة شوفينية وحرفت لمحاربة كل قومية · ما عاناه لينين دائما وبالدرجة الاولى القومية المستغلة لسواها من القوميات ·

(٥) المختارات ٣/١ ص ٨٧ الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي ( ١٩١٨ )·

(٦) مجموعة ماركس انجلز · الماركسية ص ٦٢١ مهمات منظمات الشباب·(١٩٢٠)

يضيف « « لن نتعلمها الا اذا ربطنا بصورة لا تنفصم عراها كل خطوة من العمل ، وكل خطوة في التربية والتعليم والدراسة ، بنضال جميع الشغيلة ضد المستثمرين » (١) .

وهذا يؤدي بطبيعة الحال الى فكرة ماركس وهي ان العمل معيار النظر ، ولينين بدوره يكرر هذا ، فالممارسة والتجربة تدحض كل ما هو فاسد نظريا (٢) ؛ كما ان هذا يؤدي الى ربط النظرية بالتطبيق . « ... يجب عليهم ان يفهموا ان القضية كلها الان في التطبيق ، وانه قد أتت بالضبط اللحظة التاريخية التي تتحول فيها النظرية الى النشاط العملي ، وتحيا فيها النظرية بالتطبيق ، وتتصلح بالتطبيق ، وتثبت بالتطبيق ، وتظهر فيها صحيحة بوجه خاص كلمات ماركس : « كل خطوة من الحركة العملية أهم من دزينة من البرامج » (٣) .

هكذا كان نضال لينين ضد اصحاب القول من دون فعل ، كان كشفا لفعلهم الحقيقي المعادي للماركسية ، وكان تأكيدا مستمرا للعمل الهادف : كهدف ، وكنضال ، وكمعيار وهو ما ينسى عند المبسطين والتحريفيين ليبقى من العمل كونه تطبيقا، لا غير بتسجيل الاستشهادات المختارة وحذف ما لا يناسب ! وبذلك وصلوا الى الاختيارية وبالتالي الى التلفيقية ، وهم يرفعون الماركسية شعارا !

بيد ان العمل بما هو هادف ، محور للديالكتيك ، حوله تتنظم العلاقات الجدلية ، وبه تكون في الواقع وفي الهدف العام وفي البرنامج .من هنا تأكيدنا على ان الماركسية ، وبالتالي اللينينية هي علم العمل اولا ، ثم هي فلسفة العمل الهادف أخيرا ، وهذا هو امتيازها عن المثالية وعن المادية ، وهذا هو امتيازها كفلسفة ثورية تريد تبديل العالم لا تفسيره فحسب ، تريد تحرير العمل للوصول به الى هدف اسمى ، يكون معه الانسان مرادفا للعمل الهادف ، يكون به العمل حاجة اولى .

---

(١) مجموعة ماركس، انجلز ، الماركسية ص ٦٢١مهمات منظمات الشباب (١٩٢٠).

(٢) المرجع السابق ص ٦٣٨ .

(٣) راجع المادية والمذهب التجريبي النقدي : ص ٩٢ ( عن انجلز ) ترجمة منير مشابك . دمشق .

# الفهرس

## هذا الكتاب

هذه محاولة جدية لفهم الماركسية ـ اللينينية ٠٠ فالمؤلف يتعرض لانجازات ماركس العلمية في « رأس المال » بالدرجة الاولى ، ويؤكد على أطروحة العمل التي أسس فوقها العلم الماركسي ، ثم يستعيد التراث الفلسفي الماركسي ليناقشه بحسب ما جاء في كتاب «رأس المال» ٠٠ هذا في القسم الاول من الكتاب ، أما في القسم الثاني فيتابع المؤلف الماركسية بين يدي لينين ، ويحاول ان يحدد فهمه وما اضافه اليها ٠٠٠ كل ذلك بهدف واضح ومحدد وهو فهم الماركسية التي اكتملت باللينينية بكونها علم العمل وتبشر بفلسفة العمل الهادف ، لتحقيق ذلك على ارض الواقع لا في الخيال ، نحو مزيد من الحرية للانسان ، ونحو مزيد من الغاء الاستعباد ، نحو العمل كحاجة اولى ٠٠٠

« الناشر »

الثمن : ٧٠٠ ق٠ل٠
أو ما يعادلها